د. عماد الدين خليل

مؤشرات إسلامية في زمن السرعة

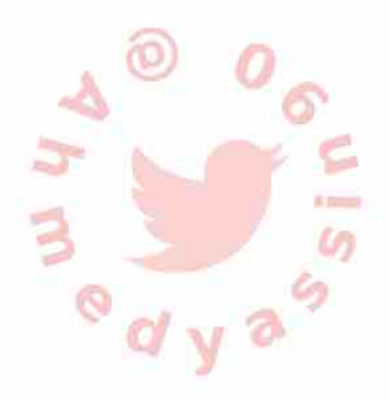


دار ابن كثير



(٢١)
مؤشرات إسلامية
في زمن السرعة

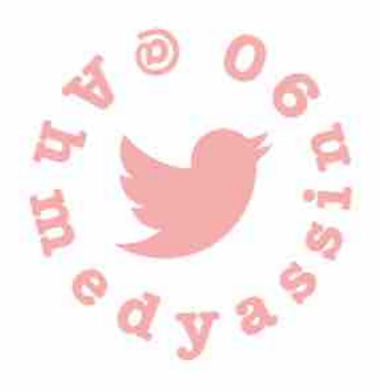
مؤشرات إسلامية في زمن السرعة



تأليف

د. عماد الدين خليل







تقديم

في زمن السرعة.. والاختزال والتركيز.. يتوجَّب على المفكر المسلم، إلى جانب أبحاثه المنهجية الشاملة، أن يطرح رؤاه، ومواقفه، وأحكامه، وتحليلاته، عبر صيرورة الحياة المتدفقة، مركزة.. مختزلة، بمقالات، أو ـ ربما ـ بكلمات قِصار.

ولم لا؟ إذا كان القارئ المعاصر بأمس الحاجة إلى معطيات تتدفق بهذا الاتجاه.. فلم لا نمنحه بعض ما يريده، ويقدر عليه وسط زحمة الحياة، وصخبها، وركضها، وعنائها؟

إذا لم يكن بمقدور الكثيرين من المثقفين، لهذا السبب أو ذاك، وما أكثر الأسباب، أن يقرؤوا بحثاً طويلاً، أو يطالعوا كتاباً منهجياً ترتبط فصوله بعضها ببعض.. فلم لا نمنحهم الفرصة لكي يفيدوا من الدقائق التي تهبهم إياها الأيام؟!.

أغلب الظن أن عصر (المقالات) الطويلة، المتثائبة، البطيئة، المحمّلة بالبديع، والمحسّنات اللفظية، والمرهقة بعبء كلمات، وعبارات، وجمل، لا قيمة لها إلّا أن تمنح المقال مزيداً من التزيّن والتبهرج.. أغلب الظن أن

عصراً كهذا قد انتهى، وإننا إذ ندلف إلى عصر جديد يتوجب أن نعيد النظر في هذا الفن التعبيري؛ فنجعله أكثر انسجاماً مع روح العصر ونَفَسه ومتطلباته..

وما دامت فنون التعبير مجرد أدوات ومرايا، تُمرّر من خلالها، وتنعكس على صفحاتها، معطيات الفكر والوجدان... فلماذا لا نجعلها أكثر قدرة على تحقيق التواصل بين الإنسان والإنسان في كل زمان ومكان؟.

ولكن حذارِ.. فالتركيز البالغ للموقف، أو الرؤية، أو التعليق، أو التحليل يقتضي حدّاً أدنى من سلامة اللغة، ومتطلبات الجمال.. ولم تكن عربيتنا الجميلة، مهما ألححنا عليها اختزالاً وتركيزاً، لتبخل علينا بعطائها السخيّ.. وما كان لمقال يتجاوز طرائق التعبير الجميل وشروط الأداء اللغوي السليم، إلا جنيناً مشوَّهاً يخرج من رحم أمه، فلا تقدر عين على رؤيته ولا قلب على محبته.. ولا يقدر هو على الحياة، فما يلبث إلّا قليلاً حتى يفارقها..

ثم إن التركيز يقتضي جُهداً إضافياً لأنه يضع صاحبه أمام محنة الاختيار: اختيار الكلمات والمعاني لكي تعبِّر عن الموقف أو الرؤية التي يبتغيها، حيث يتدفق بحر الكلمات وتتدافع المعاني..

إن المقال القصير سهل.. نعم.. لكنه يفرض صعوبات ما كان يعانيها أصحاب المقال الطويل، وهم يتحرَّكون على سجيّتهم لكي يطرحوا كل ما يخطر لهم على بال، مما يمسّ موضوعهم طبعاً.. وبأكبر قدر من الكلمات.. حيث لا يجدون أنفسهم في محنة الاختيار..

وما لنا ألّا ندلف مسرعين إلى المواضيع، التي يتضمَّنها هذا الكتاب[١]، ما دمنا نتحدث عن زمن السرعة.. والاختزال.. والتركيز؟!.

---

(١) سبق وأن أصدر المؤلف كتاباً في هذا السياق بعنوان: (آفاق قرآنية)، (دار العلم للملايين، بيروت ـ ١٩٧٩م) وهذا هو الكتاب الثاني على الطريق نفسه.

إن أية إضافة أخرى لكلمات هذه المقدمة قد يسوقنا إلى نوع من التناقض بين ما هو كائن وما يجب أن يكون..

فلنتوكَّلْ على الله ولنبدأ القراءة معاً.. وما وجدتم فيها من عشرات وأخطاء؛ فأعينوني عليها.. (فالمشوار) طويل، ولابدّ من معونتكم..

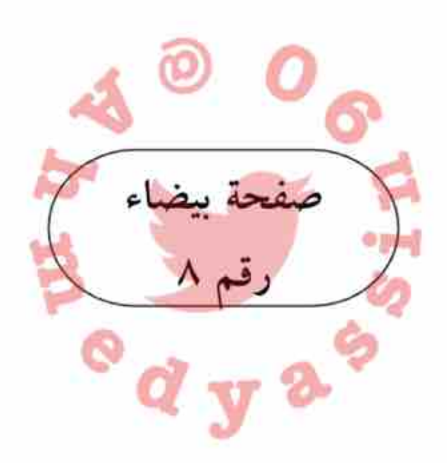
﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[1].

الموصل / عماد الدين خليل






(١) سورة آل عمران: الآية: ٨.


صفحة بيضاء
رقم ٨

«لا أخاف الله..!!»

عبارة كثيراً ما يطلقها أدعياء خرافة الإلحاد.. يقولونها كلمات.. أو يفرزونها سلوكاً وممارسات.. وفي كلتا الحالتين يشير رفضهم السالب، بما يتضمنه من شحنات التحدِّي المتوتر، والإنكار الخادع.. إلا أن ثمة في أعماق قلوبهم، في قاع فطرتهم التي تكدّس فوقها التراب.. اعتراف بشكل من الأشكال.. إقرارٌ ما.. بهذه القوة العلوية التي يخافونها، ويتجاهلونها، ثم يتحدونها، منفعلين متوترين.. تلك هي الله سبحانه.. لكأنهم يؤكدون بموقفهم هذا ـ ومن حيث لا يشعرون ـ إيمانهم المسبق، المطموس بخالقهم.

لقد قالها القرآن الكريم.. إن حقيقة الإيمان مركوزة في جبلة ابن آدم، مدونة على شهادة ميلاده، محفورة على صفحات فطرته: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[١].

ولكن التعامل مع هذه الحقيقة العميقة يختلف بين إنسان وآخر.. حيث تركت حرية اتخاذ المواقف للإنسان نفسه.. فمنهم من يفتح عقله، وقلبه، وروحه، ووجدانه، لحقيقة الإيمان، فيزداد توحداً، وامتلاءً، وسعادة، وقدرة على الفعل التاريخي في الزمان والمكان.. فينال نعيم

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٢ - ١٧٣.

الدنيا والآخرة.. ومنهم من يسد بعض المنافذ، ويفتح بعضها الآخر، أو يتركها نصف مفتوحة فيهتز إيمانه، ويومض بين الحين والحين كلما انزاحت ستارة مسدلة عن هذه النافذة أو تلك.. ومنهم من يردم عليها التراب أو يتركه يتراكم فوقها.. برين على القلب، وغشاوة على البصيرة، وصدأ على الفؤاد.. ويبعُد عنها أو تبعُد عنه.. حتى يأتي ذلك اليوم الذي يتصوَّر فيه أنه ليس ثمة ما يربطه بالإيمان.. ويفقد القدرة على التواصل، بأي شكل من الأشكال، مع تلك الحقيقة التي طمست في أعمق أعماقه، وراء طبقات كثيفة من الصدأ والتراب، حتى إذا ما أعلن يوماً أنه لا يخاف الله.. أو مارس فعلاً يعلن به عن ذلك، فإنه إنما يفعل ذلك في محاولة منه لاقتطاع آخر جذر في فطرته يمكنه من استئصال حقيقة الإيمان بالله، المتأصِّلة هناك.. ولن يستطيع..

إنه، إذا ما استخدمنا مصطلحات الفقهاء، واللغويين، نوع من (مفهوم المخالفة) الذي يقود ضمناً إلى معنى نقيض للمعنى المعلن قولاً أو فعلاً..

وسواء كان هذا الذي يتخذ موقف الرفض إنساناً عادياً، أم مثقفاً على مستوى كبار المفكرين الوجوديين القائلين بالحرية بعيداً عن رقابة الإلٰه وإلزاماته الفوقية المسبقة.. فإن الأمر الذي لا ريب فيه أن موقفهم هذا يمثل إعلاناً بشكل ما عن حقيقة أصيلة وكبيرة يسعون لتجاهلها.. وإنكارها..

وما أكثر ما عاد هؤلاء، بعد لجاجتهم تلك، وعنادهم، وغرورهم، إلى الحقيقة التي سعوا لاغتيالها.. فعانقوها.. وأصبحوا حينذاك.. وحينذاك فقط.. سعداء حقاً..




الصراع.. والتوافق.. معاً

ليس تاريخ الكون والعالم صراعاً وتناقضاً كله.. كما تريد (الديالكتيكية) أن تقول.. فهنالك ما هو نقيض التصادم والصراع.. هنالك ـ أيضاً ـ حركة باتجاه الانسجام والتوحد والتوافق.. وهي تغطي مساحة واسعة في حركة الكون والعالم.

إن الرؤية الأحادية التي تأسر المنهج الديالكتيكي تقف عند جانب واحد.. صحيح أنه يحتل مكاناً واسعاً من التاريخ، ويفسر مساحة كبيرة من الحركة، لكنه ليس الجانب الأوحد.. فهنالك جوانب أخرى، قد تكون نقيضة تماماً لمفهوم الصراع، لكنها تشترك معه في تحريك العالم.. وتفسيره كذلك.

ومأساة الفكر الغربي.. والمعطيات الوضعية عموماً.. هي هذا التشبث بالكشف الأحادي.. هذا التشنج على جانب من المعرفة، التي يتوصل إليها هذا المفكر أو ذاك، والادّعاء بأنه الجانب الأول والأخير.. الجانب النهائي..

فَعَلَها ماركس.. وفعلها دركايم.. وهيغل.. وفرويد.. ودارون.. إلى آخره.. وسيفعلها عشرات بل مئات غيرهم.. ما دام أن من طبيعة السايكولوجية الوضعية ـ إذا صحّ التعبير ـ أن يتضخم إحساسها بالكشف المعرفي حتى يصبح ورماً خبيثاً يحجب الرؤية الموضوعية العادلة إلى جوانب المسألة كلها..

ومهما يكن من أمر فإن ما يقوله الديالكتيك الماركسي، إنما هو عرض لجانب واحد، أما الجانب الآخر فيتمثل بالوفاق، والتناغم، والتعاطف، والالتئام، والانسجام، أي: ـ باختصار ـ بتحرك متقابل، وليس بتضاد متقابل..

في الكون.. على مستوى السدم، والنجوم، والمجموعات الشمسية، والمجرات.. يوجد الانشقاق والصراع.. والتفتت. ويوجد كذلك التجاذب، والتجمع، والتكاثف والدوران المتناغم، والانسجام.. والحركة في الحالتين يمكن أن تجد تفسيرها وفق هذه الصيغة أو تلك..

وفي المادة.. في صميم التركيب الذري للأشياء.. يوجد الانشقاق والصراع والتنافر والتفتت.. ويوجد كذلك التجاذب، والتوازن، والتناغم، والانسجام.. وتجد الحركة في الحالتين تفسيرها كذلك..

أما في الحياة البشرية.. في التاريخ البشري.. فإن الأمثلة كثيرة جداً بحيث يصعب على المرء أن يختار نماذج منها..

فالحياة البشرية وفق مسارها الطويل،والتاريخ البشري عبر تدفقه الدائم، تجد مفاتيح حركتها ليس بالصراع المتضاد وحده.. بل، وربما في مساحات أوسع، في التجاذب والتجاوب والالتئام والانسجام.. والشدّ.. إن الانتماء إلى الدعوات أو المذاهب الكبرى،التي غيرت التاريخ وصنعته في الوقت نفسه.. إنما هو مثل من عديد على قدرة التوحد على تحريك التاريخ..

إن حركة الكون والعالم والطبيعة والحياة والتاريخ.. لهي ـ بشكل ما ـ أشبه بسيمفونية عظيمة.. لا تصنعها ألحان متغايرة، متضادّة فحسب، أو متناغمة متآلفة فحسب.. ولكنها نتاج مرسوم للنمطين معاً..



الإحصاء أم العقيدة؟

في كل يوم تقوم أجهزة الإحصاء وشعبه المتخصصة في الدول المتقدمة، بحملة علمية شاملة لإحصاء هذه الظاهرة أو تلك، في مجرى الحياة المعاصرة الواسع، المعقد، العميق. . مستخدمة أدق الأجهزة الكهربائية (الكومبيوتر)، وأحدث النظريات الإحصائية، وأكثر الرجال تفرغاً وتخصُّصاً . .

تجمع النتائج. . وتتعرض للفرز والفحص والدرس والتبويب والتحليل. . ثم تركز المحصلات النهائية للحملة الإحصائية في خطوط أو رسوم أو أرقام، وتوزع على المؤسسات لكي تفيد منها في دراساتها، أو تعلن على الناس لكي تيسّر لهم سبل الحياة. .

والناس، رغم هذا كله، ليسوا سعداء!!

عشرات الحملات الإحصائية تجري في السنة. . ومئات الحقائق يكشف عنها النقاب. . وآلاف المؤشرات تطرح. . وعشرات الآلاف من الأرقام توزع. . في محاولة من الأجهزة والمراكز الإحصائية لخدمة الحياة المعاصرة، وترقيتها، والكشف عن مناحي نقصها، واضطرابها، وعذابها. . بهدف العلاج. . ومع ذلك فأبناء هذه الحضارة المعاصرة ليسوا سعداء. .

اليوم تقوم حملة إحصائية في هذه الدولة أو تلك. . في هذا الإقليم أو ذاك. . في هذه المدينة أو تلك. . للكشف عن عدد المدخنين! ومقدار التبغ الذي يحرقونه في رئاتهم. . وأنواعه. . ومنحنيات الزيادة والنقصان في

استهلاك السجائر لدى كل واحد منهم.. والأنماط الأكثر شمولية لهذه المنحنيات، تلك التي تمنحنا عينات اجتماعية يقود فحص تعاملها مع الدخان إلى الكشف عن نتائج محددة، ذات بُعْدٍ اجتماعي، أو نفسي، أو.. إلى آخره..

تعلن النتائج.. وتوزع على كل من يهمه الأمر.. وتتلقَّفها الصحف والمجلات وأجهزة الإعلام.. فماذا تكون النتيجة الأكبر والأخطر؟.

إن الناس يدخِّنون لأنهم ليسوا سعداء، وإن المحاولة الإحصائية لم تفعل شيئاً سوى أن وصفت الظاهرة وحللت معطياتها.. أما الطرائق الجادة للتعامل مع الظاهرة، وتحقيق نتائج نوعية لصالح الإنسان.. فهي مسألة صعبة للغاية، يعترف الإحصائيون أنها ليست من اختصاصهم.. ويظل الناس، من ثم رغم الحملات الإحصائية، ليسوا سعداء..

«قدمت حكومة ألمانية الاتحادية لبرلمانها منذ عدة سنوات ـ كما يحدثنا محمد الحديدي في كتابه: نماذج من الرواية العالمية ـ مشروعاً بتحديد شخصية كل مواطن ألماني بعدد يتكون من اثني عشر رقماً، الستة الأولى هي تاريخ مولده باليوم والشهر والسنة، والرقم التالي لذلك يدل على نوعه (ذكراً كان أو أنثى)، والقرن الذي ولد فيه (طبقاً لجداول تحدد لذلك)، ثم تأتي بعد ذلك أربعة أرقام تميز هذا الشخص بين من يشتركون معه فيما سبق من بيانات، ثم رقم أخير للتصنيف. وذلك حتى يمكن استخدام الحاسب الإلكتروني إلى ما بعد وفاته بثلاثين سنة حين يلفظه الحاسب الإلكتروني..

وينتظر أن يتم الأخذ بهذا النظام في سنة ١٩٧٥م[١] (!!) وقيل تعليقاً على ذلك: لقد سبقوا جورج أرويل بسبع سنين، وذلك إشارة إلى الرعب الاجتماعي، وانتهاء عصر الفرد الإنساني في رواية أرويل الشهيرة (١٩٨٤م)،

(١) ألَّف الحديدي كتابه المذكور قبل هذا التاريخ، ونشره في العام نفسه (١٩٧٥م).

التي ينتظرها العالم بقلب خافق!! وهناك رواية مستقبلية جديدة لإيري ليفين الأمريكي، تتناول المجتمع الانساني عندما يبتلعه الحاسب الإلكتروني في دوائره وتحويلاته وملفاته العديدة، وقد أخذت الدول الإسكندنافية بهذا النظام فعلاً».

وحاولت الولايات المتحدة يوماً أن تحرِّم الخمر في طول البلاد وعرضها، وحشدت لحملة التحريم طاقات إعلامية، ومالية، وبوليسية هائلة.. وكانت النتيجة أن فشلت الحملة وتراجعت الحكومة عن قرارها..

وعندها انشغلت أجهزة الإحصاء بمقادير الورق التي استهلكت في الحملة الإعلامية ضد الخمر وأنماطها وصنوفها، وفي عدد المعتقلين والمعاقبين، ومدد محكومياتهم، وأنماط سلوكهم، والعينات الاجتماعية التي ينتمون إليها.. ثم ماذا بعد؟ لا شيء..

ظل الأمريكي يتناول الخمرة.. ثم تجاوزها إلى الحشيش والأفيون.. ثم تجاوزهما إلى الحقن والعقاقير.. ثم إلى أن يرمي بنفسه من الطوابق العليا لكي يغادر الحياة التعسة التي يحياها.. نشوان فرحان جذلاً.. ثم تجيء موجات الدنس والقذارة الجماعية التي تكتسح الشباب في عواصم العالم الكبرى.. البيتلز والهاييز والبانكيز.. و.. و.. إلى آخره..

إن الإحصاء لا يفعل سوى أن يسلط الضوء على الظاهرة.. وأسارع فأقول إنها حقّاً خطوة لها أهميتها الكبيرة.. ولكنها وحدها لا تكفي.

لابدّ من العقيدة أولاً.. وبعدها يجيء دور الإحصاء.. والإحصاء وحده لا يفعل شيئاً ولا يعني شيئاً..

أسمعتم عن رأي (توينبي)، المؤرخ البريطاني المعروف؟ إن أحد عوامل إعجابه بقدرة الإسلام الفذة على الفعل والتغيير هو تمكنه من تخليص أمة

بأسرها من ظاهرة تعاطي الخمر، تلك التي تمتدُّ جذورها آلاف السنين، وهو ما لم يستطع قانون أو دين أو نظام أن يفعله كما فعله الإسلام؟!.

أقرأتم عن المعجزة نفسها كيف تحققت؟.

ثلاث آيات من القرآن فحسب تحسم الموقف لصالح الإنسان.. لا أطنان من الأوراق.. ولا مئات الملايين من الدنانير.. ولا عشرات الألوف من المعتقلين.. ولا مئات من المؤشرات الإحصائية والبيانات العلمية والمنحنيات!!.

ثلاث آيات من القرآن فحسب.. والمفتاح يكمن في العقيدة.. لقد أعطى الإسلام أتباعه عقيدة جادة تغلغلت في عقولهم وشرايينهم، حتى أصبحت الهواء الذي يتنفَّسون، والدم الذي يجري في العروق.. وحينذاك كان بمقدور الرسول عليه السلام وهو يتلقَّى أمر الله، أن يقول للمسلمين: «إن الله يأمركم أن تكفُّوا عن شرب الخمر».. ويومها فقط شوهدت دِنان الخمر وهي تُكسَّر.. والصهباء وهي تنساب على الأرض مختلطة بترابها ووحلها.. وشوهد بعض من دخل الخمر جوفه قبل دقائق أو ساعات يسعى جاهداً إلى تفريغ جوفه من الدنس.. لكي يتطهَّر كما أراد له الله أن يكون..

ومرة أخرى.. العقيدة أولاً..

وبدونها.. فإن ألفاً من محاولات الإحصاء لن تفعل سوى أن تصف الظواهر وتصنفها.. أما الناس فإنهم سيظلون ـ في الطرف الآخر ـ ليسوا سعداء!!.

المسلم وحدَه هو التقدّمي!!

يمثل الإسلام موقفاً في قمة حركة التاريخ؛ لأنه دعوة لاكتشاف قوانين الحركة والتوافق معها.. ليس مع حركة التاريخ فحسب.. كما تسعى الماركسية، ولكن مع نواميس الكون والعالم كله..

ولو شعر المسلم الجاد أنه يقف في موقع ساكن، أو رجعي، لغادره مباشرة بمجرد أن يملك ذرة من ذكاء.. لكن قناعته تنبثق من كونه ينتمي إلى العقيدة التي تجعل له الإرادة الفاعلة في العودة بذاته وبمجتمعه وبالبشرية عموماً.. إلى طريق التوافق العظيم، والتقدم ـ من ثم ـ بزخم كبير يتولد بالضرورة من التقاء الطاقات الإنسانية والمادية في إطار التوافق.. وليس تصادمها.. وتقاطعها.. وتفتتها.. التقدم إلى كشف أعظم.. وخطوات أوسع.. وبنيان أكثر ديمومة ورسوخاً يقام على هذه الكشوف..

لو أن المسلم الجاد يشعر لحظة بأنه يقف في موقع رجعي أو ساكن، لتخلَّى عنه توّاً.. لكنه يحسّ أنه يتحرك في قمة المسيرة التاريخية.. دائماً.. لأنه ملبٍّ لكلمة الله التي تقوده وتحدوه..

ومَنْ، غير الله سبحانه، مَنْ يقدر على تحديد مواقع الرجعية، والسكون، والتقدمية، الله الذي يعلو على مواضعات الزمان والمكان النسبية، ويستشرف بعلمه المحيط صيرورة الكون.. والتاريخ.. والطبيعة.. والحضارات؟

لقد تحدَّث عشرات الوضعيين، بل مئاتهم، منذ عهد أرسطو وسقراط وأفلاطون، وحتى عصر برغسون وديوي وتوينبي وسارتر.. مروراً بماركس وأنغلز وهيغل وبلاييف وغيرهم.. تحدَّثوا عن مفاهيم الحركة.. وكل اتخذ موقفاً إزاءها، وحدد على ضوء موقفه ما هو رجعي، وما هو ساكن (ستاتيكي) وما هو حركي (ديناميكي).. موقف يختلف بدرجة أو بأخرى عن مواقف الآخرين.. فمن منهم يا ترى يكون مصيباً؟! ولماذا يكون ادّعاء العلمية والصواب المطلق حِكْراً على هذا المفكر أو الفيلسوف.. أو ذاك.. ما داموا أنهم جميعاً أعملوا عقولهم، من خلال قدرات نسبية، ومعرفة غير كاملة بالحقائق، ثم أصدروا حكمهم بعد هذا؟.

ليس ثمة قول فصل في هذا المجال.. كما هو الحال في أي من مجالات الفكر الوضعي فيما يسمى بدائرة العلوم الإنسانية، والتي يحلو لرجالاتها ادّعاء العلم المطلق، واعتبار ما يطرحونه من فلسفات بمثابة كشف نهائي لسنن العالم والحياة.. على العكس من رجال العلم المختبري الذين علمتهم مناهج بحثهم العلمية حقّاً أن يتواضعوا فلا يقعوا في مظنة الادّعاء!!.

والمسلم الجاد يرفض وصاية أحد من الوضّاعين، ويرفض تصنيفهم الناس إلى رجعيين وسكونيين وتقدميين. كما يرفض تصنيفهم للحقائق والسنن والنواميس، لأنهم كما يصفهم القرآن الكريم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[1].

والمسلم الجاد مقتنع حتى آخر قطرة من دمه، وأعمق خلية في دماغه.. أنه يختار، بإسلامه، أكثر المواقع حركية وتقدمية في مسار التاريخ ونواميس الكون وخرائطه.. وأن جهاده، الذي هو بمثابة ثورة دائمة، إنما هو

(١) سورة النجم، آية: ٢٣.

استراتيجية الحفاظ على هذا الموقع، ودعوة الإنسان في مشارق الأرض ومغاربها.. إلى اختياره.. وصدق الله العظيم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[1].




(١) سورة الشورى، الآيتان: ٥٢ - ٥٣.

وجاء دور الكنيسة!!

وأخيراً.. ها هي ذي صحيفة (الصنداي ميرر)، في عددها الصادر في الحادي والعشرين من مايس عام ١٩٧٨م، (الصفحة السابعة والثلاثون)، تعلن بمانشيت عريض، وخبر مفصّل عن استعداد (الكنيسة) للقيام بإجراءات عقد الزواج بين أي رجلين يرغبان في ذلك، وبدافع من شذوذهما الجنسي بطبيعة الحال.. وكان مجلسا العموم واللوردات البريطانيين قد صوّتا في أواخر الستينيات وبأغلبية كبيرة على شرعية الشذوذ الجنسي. ثم ها هي ذي الكنيسة تلحق بهما بعد عقد واحد فتبارك هذه الشرعية وتضفي عليها قداسة دينية!!.

وبعد اليوم لن تغدو العلاقة الشاذة بين رجلين، أو شابين، ساقطين، مرذولة سافلة، تقضي بالحكم عليها بالموت.. جزاءً نكالاً.. بل أمراً مشروعاً معترفاً به قانونياً ودينياً، ومن حق طرفيه ـ كذلك ـ أن يوثقاه لكي يصبح زواجاً أبدياً بين الرجل.. والرجل!!

هكذا.. وبهذه الوقاحة التي تدوس، وهي معصوبة العينين، شهوة وارتكاساً، على بداهات القيم والأعراف الدينية والأخلاقية والاجتماعية.. والحضارية عموماً..

وقد يبدو الأمر غريباً للوهلة الأولى.. أن يصوّت مجلس العموم أو اللوردات البريطاني على شرعية الشذوذ الجنسي.. وأن تلحق بهما الكنيسة التي يفترض بها بداهة أن تقاتل الدنس حيثما كان، فتثور عليه، وترفع

السلاح بوجهه. وإذا كانت قد جُرِّدت من أدوات القتال المادية.. فلا أقل من أن ترفع سلاح الكلمة بوجهه.. وما أكبر قوة الكلمة، وقدرتها على الفعل، والتحدي، والتغيير..

ولكن الذي حدث هو عكس هذا تماماً.. جاءت الكنيسة على غير استحياء لكي تعلن على الملأ في إحدى أكثر الصحف البريطانية شهرة وانتشاراً.. وبالقلم العريض.. أنها تبارك زواج الرجال.. وبهذا تدخل ميدان المنافسة على توسيع نطاق الأنصار والمعجبين والأتباع.. بالخطيئة تريد أن تحقق انتشارها بين الجماهير، وبهذا تبحر باتجاه مضاد تماماً لما فعله السيد المسيح عليه السلام وحواريوه الكرام..

قد يبدو الأمر غريباً للوهلة الأولى.. لكن المتتبع لأحوال ونزوات حضارة المادية والتكاثر.. حضارة الميل والظن والهوى.. الحضارة التي يصنعها ويقودها طواغيت العالم ومستعبدوه، لن يجد في الأمر أية غرابة..

إن الخطوتين المدنية والدينية، للمؤسسات والتشريعات الكنسية لا تعدوان أن تكونا ثمرتين فاسدتين لشجرة قد تعفنت جذورها في الأرض، والشجرة الخبيثة لا تنبت إلا خبيثاً، ولا تعطي للناس إلا نكداً.. إن الأسباب كامنة هناك منبثة في كل مكان.. والنتائج مرهونة بأسبابها.. إن المرّ والعلقم لا يمنح حلواً طيباً.. لا يمنح إلا المرّ والعلقم.. وإن العمى لن يلد إلا ضلالاً..

وإذا كنّا اليوم نسمع بنبأ فاجر كهذا، فقد كنا سمعنا من قبل بفضائح لا تقل فجوراً، هزت يومها رئاسات وحكومات ومؤسسات كبيرة. ثم توالت حتى أصبحت إلفاً وتقليداً فلم تعد توصم بالفضائح، ولم تعد تحدث هزات ولا ردود أفعال.. ولا سخطاً.. ولسنا ندري ما الذي سيحدث في مستقبل الأيام، ولكن الذي سيحدث سيكون رهيباً حقّاً..

إن الحضارة الغربية اليوم، أصبحت جسداً لا يملك روحاً، ولا ضميراً، ولا أخلاقاً.. أما الدين.. فسلام عليه، والجسد الميت لن يحسّ أو يتألم حتى ولو انتهك شرفه في اليوم خمسين مرة!!.

ومن قبل كانت الكنيسة الأمريكية، وهي تدخل سباق التكاثر مع المؤسسات الدنيوية، قد أدخلت إلى باحاتها وأروقتها الرقص والموسيقا والخمر والغناء.. إنها لا تريد أن يفلت الشباب المتعطش للمتعة والحياة من بين يديها.. لا تريد أن تمر عليها أيام الآحاد وليس في باحاتها إلا الآحاد!!.

إن المؤسسات الدنيوية تعجّ بالرواد والمتعاملين.. تقودهم إليها من بطونهم وفروجهم.. فلتستخدم الكنيسة السلاح نفسه.. وإذا كانت في الماضي القريب قد تقدمت لقيادتهم من بطونهم.. فها هي اليوم تتقدم لقيادتهم من [...] ولا حول ولا قوة إلا بالله!!.




في المادية
يتحول الإنسان إلى كومة!!

الشرائح العليا للبورجوازية.. الشرائح السفلى للمهنيين.. الشرائح الوسطى للموظفين..

هكذا يشرح التفسير المادي الحركات التاريخية، والمجتمعات البشرية، بأسلوب رياضي صارم وساذج في الوقت نفسه، لأنه يبسط العلاقات الاجتماعية والسايكولوجية بأكثر مما تطيق، كما أنه أسلوب يتميز بقدر غير قليل من التحقير للإنسان، وامتهان كرامته، بتحويل المواطن الإنسان إلى مجرد رقم أو كتلة كمية تنضاف إلى هذه الشريحة، أو الكومة الاجتماعية، أو تلك، على ضوء معيار واحد فقط هو مقدار ما تملكه من مال!!.

وسيجيء اليوم الذي يكون فيه تفسير التاريخ، أو تحليل مجتمع ما بالشكل التالي: المجتمع المصري في عصر الثورة العرابية:

١٠٪ شرائح بورجوازية عليا، يملك الواحد منها في المعدل الوسطي مئة ألف جنيه، فإذاً، فإن تصرفاتها التاريخية، ومواقفها، يجب لن تكون كذا وكذا (لاحظ يجب هذه، وأن أتباع المادية هنا في الشرق يستخدمونها أكثر من أساتذتهم ويعضّون عليها بالنواجذ، لأنهم كما يصطلح المثل: ملكيون أكثر من الملك)..

و٢٥٪ شرائح سفلى تملك في المعدل الوسطي خمسين جنيهاً، فإذاً فإن تصرفاتها يجب أن تكون كذا.. وكذا..

وهكذا.. فإن مؤشر تصرف الإنسان، وسلوكه التاريخي يتحدّد فقط بانتمائه الطبقي، وبمقدار دخله السنوي.. أي: ما يملكه من مال..

وبنظرة سريعة إلى التاريخ البشري.. وإلى تاريخنا نحن بالذات.. يتبين سخف هذه النظرية.. وتشنجها،، وتهافتها.. فليس الانتماء الطبقي.. وليس الدخل السنوي هما وحدهما اللذان يحركان التاريخ.. إن هنالك انتماءات لعبت دورها الخطير الحاسم في التاريخ.. تدحضها وتعطي مؤشرات أخرى: الانتماء القبلي ـ على سبيل المثال ـ في مساحات واسعة من تاريخنا الإسلامي.. حيث كان أبناء القبائل يتحركون وفق مسار الروح القبلية وأهدافها وردود أفعالها، بغض النظر عن مكانتهم الطبقية ودخلهم السنوي.. كان فقير قيس وغنيها يقاتل ضد فقير يمن وغنيها.. لم يتعاطف فقراء هذه القبيلة وتلك.. ويتمنى الإنسان لو حدث هذا.. كما أنه ما التحمت مصالح أغنياء هذه القبيلة أو تلك.. وكلنا نعرف المساحة الكبيرة التي غطّاها الدافع القبلي في تاريخنا..

في فجر الدعوة الإسلامية.. انتمى إلى الدين الجديد أناس من شتى المراكز الاجتماعية.. أناس اختلفت حظوظهم من المال.. بين من يحصل على عشرات الآلاف من الدراهم والدنانير.. وبين من لا يجد قوت يومه.. انتمى هؤلاء جميعاً إلى الدعوة الجديدة.. متجاوزين، أو بالأحرى غير معترفين أساساً، بحاجز الموقع الاجتماعي، أو الدخل.. لأن القناعة الفكرية والوجدانية بالصوت الجديد هي أكبر بكثير، وأقوى بكثير، من ثقل الموقع الاجتماعي، وتأثيرات الدخل.. ولو لم تكن كذلك لما استطاع هؤلاء الرواد أن يصمدوا بوجه تلك الحملة الجاهلية القاسية الشرسة،التي سعت إلى سحقهم وإبادتهم..

وهنالك غير هذا وذاك.. دوافع عديدة لعبت دورها وستظل تلعبه في حركة التاريخ.. هذا مع عدم إنكار الدور الكبير الذي تلعبه مسألة الانتماء

الطبقي والدخل.. ولكن الخطيئة القاتلة المناقضة للعلم والمنطق.. هو اعتبارها العامل الأول والأخير..

إن التاريخ أشد تعقيداً واستعصاءً على التسطيح.. وإن الذين سعوا لقياس حركته بالمسطرة والفرجار.. وتنبؤوا.. سقطت تنبؤاتهم.. لأن حركة التاريخ هذه لا تخضع للقياس الرياضي الصارم.. فالأرقام والسطوح والأحجام ـ الساكنة أو المتحركة ـ شيء، وبنو آدم بما يمتلكونه من تجربة معقدة هي نسيج من عقل، وعاطفة، وروح، وإرادة، ونوازع، ودوافع، وغرائز، وأشواق، ورغبات.. شيء آخر تماماً..

والذي يصنع التاريخ هو الإنسان.. ومن ثم تمتد حركته إلى أكثر من بُعد، وتتوغل إلى أكثر من عُمق.. وليس الانتماء الطبقي والدخل بقادرين على منحنا المفتاح..

وعندما يقرر عالم كبير مثل (ألكسيس كاريل)، قطع عمره في البحث المختبري، بأن إحدى أخطاء الإنسان الخطيرة تتمثل بالسعي للنظر إلى فاعلية الدماغ البشري، والعملية الحيوية عموماً، من خلال نظم هندسية سهلة الفهم، منتظمة التركيب، عندما يقرر (كاريل) ذلك فليس بمقدور أي باحث في حقل العلوم الإنسانية ذات البعد النظري، القائم على الظن والتخمين في مساحات واسعة منه، أن يسعى بالأسلوب الخاطئ نفسه لتحليل الحركة التاريخية التي يشكلها الإنسان.. الحركة المعقدة، الحيوية، التي تندّ عن التصور الهندسي المنظم.. ليس بمقدوره إذا أراد أن يتبع المنهج العلمي حقاً.

أما مسألة الشرائح هذه.. مسألة تحويل الجماعات البشرية في مجتمع ما إلى (كوم) بمقدار ما تملكه من مال.. فلعلها واحدة من الممارسات اليهودية لإذلال الإنسان وتدمير أبعاده المتميزة الأصيلة، التي تعلو على

الذهب والفضة.. وأغلب الظن أنها كذلك.. أليس اليهود هم الذين: ﴿أُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾[1]. كما وصفهم القرآن الكريم؟! الذهب.. ولاشيء وراء الذهب!!.




(١) سورة البقرة، آية: ٩٣.

مأساة العجز البشري

في حوار موسى والخضر عليهما السلام ـ الذي نطالعه في سورة الكهف ـ عرض مؤثر للعجز البشري.. لعدم قدرة الإنسان على معرفة المطلق، وإدراك ما يخبئه له الغيب، وسبر طوايا المجهول.. أياً كان هذا الإنسان.. نبياً.. أم بشراً عاديّاً..

فها هو موسى النبي، الذي اختاره الله لأداء رسالته، وأنزل عليه الألواح.. ها هو ذا يعلن عن عجزه عن معرفة المطلق، واختراق جدار المجهول.. بل يتواضع أكثر من هذا ويطلب مزيد علم من الرجل. قال له موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[1]، يجيبه الرجل: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾[2].. ويرد موسى وهو يتلهف للمعرفة: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾[3]: الصبر على التعلم.. والالتزام.. تلك هي القيم التي يعلن موسى أنه سيأخذ نفسه بها. فينصحه الرجل: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[4].

وتبدأ التجربة.. ويمارس الرجل أمام عيني موسى أفعالاً تبدو في ظاهرها خطأً فادحاً، وعملاً لا معقولاً منافياً للحق والعدل: خرق

---

(١) سورة الكهف، آية: ٦٦.

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ٦٧ - ٦٨.

(٣) سورة الكهف، آية: ٦٩.

(٤) سورة الكهف، آية: ٧٠.

السفينة.. قتل النفس.. إقامة الجدار في القرية التي رفضت أن تضيفهما.. وفي أعقاب كل عمل يتجاوز موسى حدود الصبر الذي قرر أن يأخذ نفسه به ويصرخ معترضاً على أفعال الرجل.. لأنه عاجز عن معرفة الوجه الآخر للعمل.. المغزى الحقيقي الغائب عن النظرة الأولى.. وفي كل مرة يذكره الرجل: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ﴾(١).. حتى إذا أوشكت التجربة على الانتهاء، بين رجلين يعرف أحدهما الكثير مما علمه الله، ولا يعرف ثانيهما، رغم كونه نبياً، سوى القليل مما يعرفه الأول.. يقول أولهما: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾(٢).. وما يلبث أن يكشف له عن الأسباب الحقيقية لأفعاله تلك: الإغراق.. القتل.. إقامة الجدار.. ويختتم حديثه قائلاً: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾(٣) ثم يختفي.

كثيرة هي القيم والتعاليم التي منحنا إياها هذا العرض المركَّز، الموحي، المثير.. إن علينا أن نتواضع فلا ندعي الإحاطة بعلم كل شيء.. وعلينا أن نصبر على مشقة السير في طريق المعرفة المتعرّج الطويل الذي لا يمنح أسراره بسهولة بالغة.. وبالمجان..

وعلينا، قبل هذا وذاك، ألّا نتسرع في إصدار أحكامنا على الظواهر والممارسات والأفعال.. أن نصبر على دراستها وفهمها، وأن نطيل الوقوف حواليها، لكي نتبين الأوجه الأكثر خفاءً للظاهرة، والأسباب الأبعد والأعمق للفعل.. فلا نقع في خطيئة الحكم بالظن وما تهوى الأنفس..

إن القرآن الكريم يريد أن يضرب مثلاً بواحدٍ من الأنبياء المعلمين الكبار

---

(١) سورة الكهف، آية: ٧٥.

(٢) سورة الكهف، آية: ٧٨.

(٣) سورة الكهف، آية: ٨٢.

أنفسهم.. لكي نطامن من كبريائنا، ونعرف حجمنا الحقيقي، ونقلل من ادعاءاتنا.. وصلفنا.. وغرورنا..

وبمجرَّد التفاتة إلى عدد من (كبار) الفلاسفة الغربيين، وإلى الادعاءات التي أحاطوا بها نظرياتهم فجعلوها حقّاً مطلقاً، وعلماً شاملاً، وإحاطة كاملة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وبمجرد أن نتذكر أساليب القسر الفكري والمادي التي سعت بعض السلطات لتنفيذ هذه الفلسفة أو تلك عن طريقها..

بمجرد أن نتذكر هذا وذاك.. نعرف ماذا يريد القرآن الكريم أن يقوله لنا.. وكم من المآسي والمصائب والويلات يريد أن يجنبنا إياها بكلماته المعجزة..




وأكثرهم للحق كارهون

تلك هي مقولة كثيراً ما نقرؤها في كتاب الله.. ومعنى هذا ـ بالمقابل ـ أن القلة هي التي تتخذ ـ في معظم الأحيان ـ موقف (الحق) فتلتزمه، وتدفع عنه، وتبشر به.. ومعنى هذا ـ كذلك ـ أن هذه القلة الرائدة، طليعة الحق، هي التي تغير التاريخ، وتصنع التاريخ..

هل هو موقف بورجوازي أو طبقي يقف ضد الجماهير، ويغمط دورها الكبير في حركة التاريخ كما يحلو للتفاسير المادية أن تقول؟.

أبداً.. فالكثرة الكارهة للحق غير محددة الانتماء الطبقي في القرآن الكريم، والقلة الرائدة غير محددة طبقياً هي الأخرى.. والإنسان هو المعني أولاً وأخيراً، سواء كان في هذا الصفّ أو ذاك، وبغض النظر عن انتماءاته الطبقية على الإطلاق..

على العكس، إن القرآن الكريم يشن حملته المعروفة على الأغنياء المترفين، ويصمهم بأنهم طليعة من يقف بمواجهة الحق في كل زمان ومكان: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[1]. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٢٣ - ٢٥.

كَفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[١]. ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[٢].

ويعلن ـ في المقابل ـ في أكثر من مكان عن أن الكثيرين ممن انتموا للإسلام، أول الأمر كانوا من المنبوذين والمستعبدين، فليس ثمة اعتراض في هذا المجال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾[٣]، ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[٤]، ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾[٥]، ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾[٦].

والسؤال الذي يبرز بدلاً من هذا هو: هل أن القلة الطائعية أو الرائدة، التي تلتزم الحق وتبشر به، هي التي تصنع التاريخ حقاً، بما رُكّبَ فيها من استعداد ذهني ونفسي وأخلاقي للانتماء الى معسكر الحق، والانضواء تحت لوائه؟ هل إن الفئة التي تختار جانب الحق هي دوماً (القلة) إزاء حشود الكثرة التي ترفض الحق وتقاومه؟.

إذا تجاوزنا التشنج المذهبي، والتنظير المتوتر، والادعاءات اللاعلمية التي تلبس لبوس المواقف العلمية، لتحقيق كسب شخصي أو فكري ما، وجئنا إلى التاريخ نفسه، فإننا سنعرف من وقائعه المزدحمة، وشواهده التي لايحدها عد أو حصر، صدق المقولة القرآنية.. إنه ما من حركة في تاريخ البشرية، بشرت بحق أو دعت إليه، إلّا كان المنتمون إليها، أيام المحنة

---

(١) سورة سبأ، الآيتان: ٣٤ - ٣٥.
(٢) سورة الإسراء، آية: ١٦.
(٣) سورة سبأ، آية: ٣٣.
(٤) سورة سبأ، آية: ٣٧.
(٥) سورة الشعراء، آية: ١١١.
(٦) سورة هود، آية: ٢٧.

والعطاء، أقل بكثير من رافضيها ومعارضيها.. ونحن لا نتحدث هنا عن الحركات أيام انتصارها حيث يختلط الأصيل بالدخيل، ويلتبس الذهب بالتراب، وتنضوي الآلاف المؤلفة رهباً أو رغباً.. ولكننا نتحدث عنها أيام العذاب والمطاردة، والرعب والغربة والاضطهاد.. القلة هي التي تنتمي والكثرة ترفض وتقاوم.. حتى في تاريخ الحركات (الجماهيرية) نفسها.. فلولا القلة الرائدة ما أتيح لها أن تفعل شيئاً، رغم أن الكثير من هذه الحركات قامت على الزيغ والضلال، وسعت إلى تحقيق منافع شخصية أو مذهبية أو عرقية على حساب الجماهير..

ثم إن هذه القلة هي التي تصنع التاريخ.. فالمسألة ليست مسألة أعداد وأرقام، وإنما مسألة القدرة المكثفة على الفاعلية والتغيير. والرسول الكريم ﷺ يحدثنا عن اليوم الذي ستغدو فيه الأمة الإسلامية قصعة للآكلين، وقد غدت فعلاً، ليس عن قلة،فهم غثاء كغثاء السيل، ولكن عن غياب لقوى الفعل والمجابهة والتغيير في نفسية الإنسان المسلم.. والقرآن الكريم يضرب مراراً وتكراراً قاعدة الأرقام هذه ويستبدلها بقاعدة الفعل التاريخي النوعي لا الكمي: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1]، ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾...[2].

حتى بعد حقبة الانتصار.. وانضمام الأكثريات الجماهيرية إلى الحركة التاريخية، فإن قيادة الحركة، وتوجيه الطاقات الجماهيرية للتغيير التاريخي، تبقى مسألة مركزية تتمثل بالقلة الرائدة التي تبنت الحركة، وكانت عمودها الفقري، وفكرها وروحها ونسغها الصاعد..

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٥.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٦٦.

إن ثمة حقيقة كثيراً ما نلحظها في تجربة الحياة البشرية، تلك هي أن بعض الظواهر والقوانين التي تسري في عالم الأشياء وتحكمها، قد تنسحب إلى نطاق الحياة نفسها، بهذا الشكل أو ذاك.. وها هنا، بصدد الانتماء إلى الحق، والاستعلاء به، ورفض العرف الجاري والعادات المتواضع عليها والأخلاقيات السائدة، نعرف لماذا يكون ﴿أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾.. إنه قانون الجاذبية، الشد إلى أسفل، ميل الأجسام الثقيلة إلى الهبوط والالتصاق بالأرض.. ففي عالم الأشياء تميل الأجسام الثقيلة إلى الهبوط، وكلما ازدادت ثقلاً كانت أسرع في هبوطها وأشد التصاقاً بالأرض..

إن الدعوات الجديدة هي بمثابة محاولات ناهضة للارتفاع إلى فوق.. للانشقاق على وضع تاريخي بكل ما يملكه من شد إلى أسفل.. بكل ما يمنحه من ثقل للجماعة البشرية يدفعها إلى الهبوط والالتصاق.. وقليل هم أولئك الذين يطيقون تجاوز الشدّ والأثقال، والانطلاق من أسرها الباهظ إلى فوق.

أن تجعل قطعة من الحجارة أو الورق تسقط من مكان عالٍ إلى الأرض أمرٌ في غاية السهولة.. لكن أن تصنع طائرة أو صاروخاً تتجاوز شد الأرض وجاذبيتها، وتنطلق إلى أعلى لكي تحلّق في الفضاء البعيد، فذلك هو الأمر الصعب الذي لم يستطع تحقيقه إلا قلة من العباقرة والمهندسين.

في عالم العقائد والأفكار والدعوات.. فإن القلة فقط هي التي تستطيع تجاوز الأثقال والأوهاق، وتحدي منطق الجاذبية، والتحقق بالحرية، والانطلاق إلى السماء.. أما الأكثرية الساحقة، الأكثرية التي لا تملك، لأسباب تاريخية، نفسية وذهنية واجتماعية وأخلاقية، يطول شرحها، إن تبذل جهداً للانشقاق والصعود، فتميل دائماً لأن تهبط، وتلتصق بالأرض، وتلوي رأسها لشدها وضروراتها..

وليس شرطاً أن تكون القلة أو الكثرة، من هذه الطبقة أو تلك، ففي المنطوق الإسلامي، تزول حواجز الطبقات وتتهاوى جدرانها.. والذي يتحرك تاريخياً هو الإنسان أياً كان موقعه.. فقيراً أو غنياً..

في عصر الدعوة الإسلامية الأولى انتمى إلى النداء القرآني مجموعة من الرواد كان فيهم الغني وكان فيهم الفقير.. والمسألة ليست مسألة فقر أو غنى، ولكن مسألة قدرة بني آدم على تجاوز شد الأرض والانطلاق، متحررين خفافاً، إلى السماء!!.




المصلحة.. المصلحة.. المصلحة!!

ماذا يتبقى من إنسانية الإنسان إذا تحوّلت كافة مؤشرات فاعليته، ونشاطه، صوب تحقيق مصالحه الخاصة؟ ماذا يتبقى لو سعى كل فرد، وكل جماعة، وكل طبقة إلى أن يكون هدفها الأول والأخير هو ضمان مصالحها؟ ماذا لو تحوَّل لحن الحياة المتدفق، المتنوع، المبدع، ذي الطبقات العديدة والأصوات الغنية المتوافقة إلى إيقاع رتيب، مملّ، واحد، يضرب على وتر المصلحة.. المصلحة ولاشيء غير المصلحة؟!.

إن الحياة ستفقد طعمها.. ربما سيزيد الإنجاز، ويتطاول البنيان، ولكن الحياة ستفقد طعمها.. لأن الذي سيتحقق هو تحوُّل خطير في مجرى التجربة البشرية صوب أنماط المجتمعات الحشرية المنتجة: النحل.. والنمل.. ودود القز.. فهنالك تنظيم مبدع.. واقتصاد منتج.. وعمران مدروس.. ولكن لاشيء وراء مصلحة هذه المجتمعات في ضمان طعامها وتكاثرها.. لا مطامح ولا أشواق.. ولا نوازع روحية أو جمالية أو أخلاقية.. لا شيء على الإطلاق.

ومع ذلك فالذي حدث في القرون الأخيرة من تاريخ البشرية، وبخاصة في قرنها العشرين هو هذا الذي نخشاه.. تبلور المسعى البشري في بؤرة واحدة: المصلحة..

ليس هذا فحسب، بل إن هذا السلوك (اللا إنساني) الرهيب أخذ يجد تبريره في الفكر البشري، وبكافة اتجاهاته..

في المعسكر الرأسمالي، تصدت الفلسفة الذرائعية النفعية (البراغماتية) للتبرير على مستوى الفرد والمؤسسة، بكل ما تملكه الفلسفة من سلاح فكري، وجدل منطقي،وقدرة على التركيب والاستشراف..

وفي المعسكر الشيوعي تصدّت الفلسفة الماركسية للتبرير.. على مستوى الطبقة، وأعلنت بصراحة أن حركة التاريخ تقوم على صراع المصالح.. كل طبقة تسعى لتحقيق مصالحها، وضمانها، وديمومتها بضرب الطبقة الأخرى، والانقلاب عليها والحلول محلها.. وكثيراً ما نسمع في معطياتها الفكرية والأدبية والصحفية عبارة (أصحاب المصلحة الحقيقية في الثورة)..

المصلحة أولاً وأخيراً..

في جانبي العالم يتناغم هذا النداء.. تتردد أصداؤه يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، ولحظة بعد لحظة.. المصلحة.. المصلحة.. حتى كأنه ليس ثمة حقيقة أخرى قبل المصلحة أو بعدها.. من ورائها أو من بين يديها.. في البدء كانت المصلحة.. ولا شيء غير المصلحة.. ولكثرة الضرب على هذا الوتر الواحد يخيّل للإنسان أحياناً أن المصلحة هي الحقيقة النهائية فعلاً، ولا شيء وراءها.. وتكتسحه قناعة ثقيلة، مبهظة، أن عليه إن أراد مواصلة حياته بنجاح، أن يهرع هو الآخر لتحقيق مصلحته، وإلا اتهم بالسذاجة والبلادة والقصور..

أن يفرط في عرضه وشرفه.. ممكن.. أن يسحق مطامحه الروحيّة،ويدوس على التزاماته الأدبية والأخلاقية.. جائز.. أن ينتزع من أعماق وجدانه نزعاته الجمالية، واهتماماته التي تتجاوز إطار المنفعة

المباشرة.. مقبول.. لكن أن يهمل السعي من أجل تحقيق مصلحته وتنميتها وديمومتها.. فهذا أمر لا يغفر له بحال..

لكأنها عملية غسيل مخ كبيرة شاملة تجري على مستوى العالم كله.. تنتزع من الدماغ البشري، والنفس البشرية كافة خصائصهما الإنسانية، التي تميزهما عن عوالم الحشرات والأشياء.. وتعيد تركيبهما من جديد لكي لا ينبضا إلا بالمصلحة.. ولا يعملا إلا في نطاق المنفعة القريبة المباشرة..

إن منطق المصالح الرهيب هذا يدمر في الإنسان كافة أبعاده المتميزة الأصيلة..

ولا يستبقي منه إلا بعداً واحداً ذلك الذي يجعله يصنف ضمن مجتمعات النمل والنحل ودود القز!!

أيكون لليهود دور في هذه (المؤامرة) الخطيرة على خصائص الإنسان؟

أغلب الظن أن الأمر كذلك، لاسيما إذا تذكرنا أن معسكري العالم الكبيرين في الشرق والغرب، يخضعان بشكل أو آخر للقيادة اليهودية والمكر اليهودي.. وإذا تذكرنا أن فكر العالم المعاصر وأدبه وفلسفته وإعلامه تعبث بمقدراته في مساحات واسعة من العالم.. هذه اليد الماكرة الخبيثة..

اليهود الذين ﴿أُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾[١]، كما يصورهم القرآن الكريم بكلماته المعجزة، التي ترسم المواقف وتجسدها.. أشربوا.. فكأن دماءهم، شرايينهم وأنسجتهم، قد تشبعت بعشق العجل.. رمز المال والذهب..

وتاريخ بني إسرائيل هو تاريخ المال والمصالح.. فلا ندهش ـ إذاً ـ إذا ما انسحب هذا الموقف على فكرهم وسياساتهم وآدابهم وفنونهم.. ولكننا

(١) سورة البقرة، آية: ٩٣.

قد ندهش عندما نعلم أنهم يريدون قيادة المجتمعات البشرية كلها صوب هذا المصير: المال والمصلحة. . ويسعون جهدهم لتحقيقه.

وبقليل من التبصّر يمكن أن نكشف حقيقة اللعبة في جانبها هذا. . إنها قاعدة الأواني المستطرقة. . إرغام المستويات العليا للتجربة على الاندماج والتساوي مع المستويات الهابطة. .

واليهود يسعون إلى تدمير خصائص هذه المجتمعات على كافة المستويات، وبخاصة الدين والثقافة، وتحويلها إلى مجتمعات مصالح وبحث عن المال. . وإذ كان اليهود هم المتفوقون تاريخياً، وربما سايكولوجياً، في هذا المجال. . أدركنا كيف ستتحول هذه المجتمعات إلى المنزلة الدنيا وتغدو أدوات ووسائل لتنمية المال اليهودي وتضخيم حجم المصلحة اليهودية. .

إنهم بإزالة حواجز التمايز والخصوصية، التي تتمتع بها الأمم والشعوب كمعطيات تاريخية أصيلة. . بتدمير هذه الحواجز، كما يؤكدون في بروتوكولاتهم. . سيحققون هدفين يخدمان المصلحة اليهودية. .

أولهما: يتمثل بسحق كافة عناصر الرفض والاستعلاء والتميز لدى من يسمونهم (الأمميين). .

وثانيهما: إقناع هؤلاء الأمميين ـ حتى العظم ـ بأن الحياة البشرية ليست بالدين، أو الروح، أو الجمال، أو الأخلاق، أو الآداب والفنون، بقدر ما هي بالمصلحة. . المصلحة وحدها. .

وحين يتحول الأمميون إلى مجتمعات لا تعرف شيئاً آخر غير الخزن والبناء والنسيج. . كما تفعل خلايا النحل والنمل ودود القز. . فإن بمقدور القيادة اليهودية أن توجهها، بمقدرتها المتخصصة في هذا المجال، كما تشاء. .

ومن عجب أنه حتى الثورات التي يفترض من وراء قيامها إنصاف المظلومين من الظالمين، وتعزيز القيم الإنسانية في العالم.. حتى هذه الثورات تضرب على الوتر نفسه.. وتؤكد المرة تلو المرة على أنها ما جاءت إلا لتحقيق (المصلحة) للثائرين أنفسهم!!

وهكذا استدرج هؤلاء أيضاً إلى المصيدة من حيث يشعرون أو لا يشعرون.. وأصبح مبرر الثورة، ودافعها الأساسي هو المصلحة.. وضرورات المصلحة هي التي ستطيح بهم.. وتأتي بآخرين.

وإنه لسلاح ذو حدَّيْن!!

ما وراء الزمن الراهن

ما جاء الإسلام لكي (يعالج) الأوضاع (الراهنة) فحسب كما يتصور بعض المغفلين، ويصور بعض الخبثاء، بل تجاوزها في رؤياه ومعطياته التنظيرية إلى الآفاق البعيدة، حيث تغدو البشرية أكثر نضجاً وعلماً وتعقُّلاً وفهماً وإدراكاً وتحضُّراً.. إنه خطوة كبيرة حقّاً تفوق مستوى عصرها وتطلعاته، وتتجاوزه.. وما كان بمقدور البشرية يومها أن تخطوها دفعة واحدة.. وكان لابد من الانتظار.. وما حدث من انتكاسات ليس سوى عثرات موقوتة، ربما بسبب عدم التكافؤ بين حجم الإسلام الكبير وبين جسم البشرية الصغير، وسيأتي ولا ريب ذلك اليوم الذي يغدو فيه العالم مهيَّأً تماماً لاستقبال القادم العظيم: الإسلام، وتمثله..

إنه، كما كانت الأديان السماوية تتعاقب في الزمن، لكي تغطي حاجات العالم وفق منحنى تطوره العام، فإن الإسلام نفسه كدين سماوي، يتضمَّن مراحل ومنازل ودرجات، لتغطية كل مرحلة والاستجابة لتركيبها التاريخي الخفي والمنظور.. حتى إذا ما بلغ العالم سن الرشد، انسجاماً مع نواميس الكون والحياة.. كان للإسلام أن يتكشف بكليته للإنسان..

إن أحد جوانب الإعجاز القرآني، هو احتواؤه على خطين زمنيين متقاطعين دفعة واحدة، وتوحيده بينهما، والاستجابة لنداءاتهما معاً: المؤقت والدائم.. الراهن والآتي.. الساكن والمتحرك.. الآن والأبدية..

ونقرأ في كتاب الله فنرى آياته ومقاطعه تتحدَّث وتلامس وتعالج في وقت واحد، وبتناغم يعلو على الخلل والتناقض والاضطراب، الوضع الراهن في جزيرة العرب والعالم المحيط.. وما وراء الوضع الراهن في العالم كله، على مدار التاريخ.. وهو يقول بوضوح في إحدى آياته البينات مؤكداً امتداده المستقبلي، وانتصاره القادم كذلك.. يوم أن يتكشف (علمه) للبشرية الأكثر تقدماً وتعقُّلاً وتحضُّراً: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾(١)، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(٢).

إننا نلحظ في التفسير المثالي للتاريخ، ونقيضه التفسير المادي.. شيئاً شبيهاً إلى حدٍّ ما بهذا الموقف الحركي من التاريخ، وإن اختلفت الوسائل والأهداف.. نلحظ تأكيد هذين التفسيرين على أهمية التكشف المستقبلي لحركة التاريخ، ولتقبُّل معطياتها بالتالي.

وإن اكتشاف القوانين التاريخية وتمثُّلها، سيمنح الإنسان قدرة أكبر على تسريع الحركة التاريخية إذا صحَّ التعبير.. حتى إذا ما ازداد وعي الإنسان، وكبر حجم معرفته، واتسع قطر تحضره، فانداحت الدائرة يميناً وشمالاً.. كان له أن يقف عارياً، أمام حقيقة الحركة التاريخية بالأحرى، عارياً عن البراقع والحجب أمام عينيه. وحين ذاك يمكن أن يكون مثالياً كاملاً أو مادياً كاملاً.. وما النكسات التي منيت بها المادية أو المثالية، سوى عرض للجهل الراهن بقوانين الحركة التاريخية..

تشابه ما في الموقف بين الإسلام والمثالية والمادية.. أما على مستوى الوسائل والمناهج والأهداف.. فشتان.

---

(١) سورة يونس، آية: ٣٩.

(٢) سورة فصلت، آية: ٥٣.

المثالية تستهدف فكر الإنسان.. والمادية تستهدف جسد الإنسان.. أما الإسلام فإنه يستهدف الإنسان فكراً وجسداً وروحاً.. والمثالية والمادية وهما تتحركان إلى أهدافهما تمارسان عملية قتل الإنسان.. أما الإسلام فإنه يحتضنه ويحميه.. فالإنسان كما يقول رسولنا ومعلمنا عليه السلام: «بنيان الله في الأرض، وملعون من هدم بنيانه»..




القرآن.. واليهودي..

ماذا تعني تلك الحملة الشاملة المتشعبة، المؤكدة في أكثر من موضع، والتي شنّها القرآن الكريم في مساحات واسعة من سوره وآياته.. على اليهود؟!.

إننا نضع جانباً تلك المقولة الساذجة التي ترى أن القرآن قد عطف على اليهود، وأعطاهم حجماً أكبر من حجمهم الحقيقي، ورفعهم إلى نقطة الضوء بتمجيده أنبياءهم.. نضعها جانباً رغم أن بعض الأدعياء يطرحونها اليوم..

أولاً: لأن القرآن الكريم يستمد موازينه العادلة وأحكامه الموضوعية من الله سبحانه، فهو لا يغمط أمة ما أو جماعة بشرية حقها، ويطمس على دورها، إن على مستوى القيادات أو على مستوى القواعد.. وما أكثر المؤمنين الجادين من بني إسرائيل، فضلاً عن الأنبياء والملوك، أشار إليهم القرآن بالبنان وكرّمهم بما يستحقونه..

وثانياً: لأن القرآن بتخصيص هذه المساحة الواسعة لبني إسرائيل لم يهدف إلى تضخيم دورهم بقدر ما سعى إلى تشريح خصائصهم النفسية والاجتماعية والأخلاقية، كجماعة بشرية، وتحليل الطرائق والأساليب الملتوية، المنحرفة، الضالّة، التي كانوا يعتمدونها، إن مع قياداتهم وأنبيائهم، أو مع الأمم والجماعات والشعوب الأخرى.. وهذا يقودنا إلى ما أردنا أن نقف عنده قليلاً في بدء هذه السطور..

إن هذه الحملة الشاملة، المتشعِّبة، المؤكدة.. كانت، وستظل، أشبه بدليل عمل للمسلمين، وهم يشقون طريقهم عبر التاريخ ابتداء من فجر الدعوة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ وحتى يقوم الحساب.. دليل عمل إزاء كتلة دينية منحرفة، كان وسيكون، لها دور كبير في مجابهة الحركة الإسلامية وعرقلة نموها، والسعي لوقفها عن الامتداد، وتدميرها بكل ما أمكنها من أساليب مشروعة أو غير مشروعة، أخلاقية أو غير أخلاقية، ما دام (التلمود) دستورها القديم، قد أباح لها أن تفعل ما تشاء لسحق خصومها، وما دامت الصهيونية، باستراتيجيتها الحديثة، قد رسمت لها طريقاً للعمل أباحت لليهود فيه ما لم يبحه التلمود نفسه!!.

ونظرة سريعة إلى وقائع التاريخ الإسلامي منذ مولده وحتى لحظاته الراهنة ترينا حجم الدور المضاد الذي لعبه اليهود إزاءه، وطبيعته اللا أخلاقية المنافية لبداهات العمل البشري..

لقد أراد كتاب الله سبحانه، منذ لحظات العصر المدني الأولى، حيث بدأ الاحتكاك، أن يشن عليهم حملة (إعلامية)، يفضحهم فيها ويضع أساليبهم، وطرائقهم، وأخلاقياتهم وتكوينهم النفسي في دائرة الضوء، لكي يكون المسلمون، وغير المسلمين، على بيّنة من الأمر ويعرفون كيف يتحركون بحذر من لدغة الأفعى..

ليس تمجيداً ولا تضخيماً للدور اليهودي في التاريخ.. ولكنه إعلام مرسوم، واستراتيجية عمل يمنحها الله للعاملين على مدى التاريخ..

وبمجرد أن نتذكر ما فعلته بنو إسرائيل منذ عهد موسى عليه السلام وحتى عهد زعيم الإرهاب الصهيوني مناحيم بيغن، مروراً بكافة الفتن والفجائع والانشقاقات والانقلابات والحروب الطاحنة.. وبمجرد أن

نتذكر ردود فعل الأمم والشعوب إزاء المكر والحقد اليهوديين.. وإحساس الأمم والشعوب قلّما يخطئ.. بمجرد أن نتذكر هذا وذاك، فإننا سنعرف لماذا خصّ القرآن هذه الفئة (الضالة) بتلك المساحات الواسعة من سوره وآياته.

ويبقى كل موقف من مواقف القرآن الكريم، في أيما قضية أو معضلة، إعجازاً بيّناً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..




القوميّة الروسيّة والضربة المضادة

يوماً بعد يوم يزداد التباعد بين متطلبات الأممية الشيوعية وبين السياسات الروسية، ولا أقول السوفييتية، التي تنحو أكثر فأكثر منحىً قومياً. .

منذ عارض ستالين في العشرينيات دعوة تروتسكي، الأكثر انسجاماً مع الماركسية، لمواصلة الثورة في العالم كله. . ثم قتله بعد ذلك. . ومنذ إحياء ستالين للنزعات الوطنية والقومية الروسية المكبوتة، لمنح الأمة حصانة كافية ضد النازية، ورفع معنوياتها بمواجهة الغزو الرهيب. . بدأ يتضح هذا الصراع الثنائي، المنظور حيناً، والخفي أحياناً، بين الاتجاه العالمي والمصالح القومية في السياسات الروسية. .

وجاء الصراع الصيني، منذ أواخر الخمسينيات، لكي يؤكد هذا البعد، ويبين للناس بالوقائع المنظورة، كيف يتفوق الحسّ القومي والمصلحة القومية على متطلبات نظرية لا تملك الثقل نفسه في توجيه أحداث التاريخ. .

وفي دول شرقي أوروبة، المحسوبة على المعسكر الاشتراكي، ترتفع الشكوى يوماً بعد يوم، من المزايا الاقتصادية التي تتمتع بها روسيا على حسابها، ومن الشروط المبهظة التي تفرضها عليها خلال تعاملها الاقتصادي معها بيعاً وشراءً. . فكأنها ليست دولة صديقة، وكأنها ليست الأم الرؤوم للمذهبية، تعطف على أبنائها جميعاً، وتنظر إليهم على قدم المساواة، وإنما

هي دولة ترعى بالدرجة الأولى مصالحها القومية، أسوة بما تفعله فرنسة وبريطانية وغيرهما، حتى ولو جاء ذلك على حساب أشقائها وأبنائها.. وعلى حساب المذهب الذي يحتضن الجميع.

ومن أجل أميال مربعة من الأرض، ونهيرات تجري هنا وهناك.. يتصاعد الصراع مع الصين، وتتحرك الجيوش، ويتبادل الرصاص.. ووحدة الطبقة العاملة، ومصالحها المذهبية، تحتم زوالاً للحدود بين هذا المعسكر الاشتراكي وذاك، وتبادلاً سكانياً واقتصادياً مفتوحاً.. لا صراعاً عسكرياً وتوتّراً دائماً..

وتزداد مؤشرات الاتجاه القومي في السياسات الروسية ويزداد التباعد عن مقتضيات الالتزامات المذهبية في العلاقات الدولية.. فإذا بروسية تنفذ مع أمريكة زعيمة الرأسمالية وفاقاً دولياً عريضاً، تتبادل فيه الخبرات التكنولوجية، ويتسع حجم الصادرات أضعافاً مضاعفة، وفق شروط خاصة يتمنى (الأشقاء) في أوروبة الشرقية عشر معشارها، وتتلقى روسية أطنان الغلال الأمريكية لكي تسد حاجتها القومية إلى الغذاء!!

ويحدث ما هو أكثر من هذا كله، فإذا بروسية، من أجل تطمين مصالحها القومية، في العالم، تعتمد نفس الأساليب الاستعمارية الجديدة التي يعتمدها المعسكر الرأسمالي.. في آسية.. في إفريقية.. في أمريكة اللاتينية.. وفي أوروبة نفسها.. الأمر الذي دعا الصين إلى ابتكار عبارة (الإمبريالية الروسية).. وهذا الاتهام ليس ـ هو الآخر ـ مجرد حملة إعلامية كاذبة، ولكنه تحليل ذكي من أبناء الملّة الواحدة لمؤشرات السياسة الروسية، التي أخذت تبرر كل سلوك في سبيل مصالحها القومية..

والمكان الوحيد الذي التقت عبره مصالح روسية القومية ومنطلقاتها المذهبية هي فلسطين.. للأسف الشديد..

على المستوى القومي ـ وعلى سبيل المثال ـ كانت صفقات القمح تأتيها من الولايات المتحدة مقابل معاملة (ذات شروط خاصة) لليهود الذين يمتطون المناصب الخطيرة في الدولتين . .

ومن بين هذه الشروط أن يسمح لليهود بالهجرة إلى فلسطين المحتلة . . ومعنى هذا إرفاد إسرائيل بمزيد من الخبرات والطاقات، لتعزيز وجودها على حساب أصحاب الحق الشرعي في فلسطين. وقد بلغ عدد هؤلاء المهاجرين خلال سنة واحدة أكثر من أربعة وثلاثين ألفاً . .

وعلى المستوى المذهبي ـ وعلى سبيل المثال أيضاً ـ تبنَّى الاتحاد السوفييتي منذ اللحظة الأولى فكرة قيام إسرائيل (الاشتراكية) في قلب المنطقة العربية (الرجعية الإقطاعية)، ومن يطالع خطابات مندوب روسية يومها : أندريه غروميكو، يتبين له مدى الحرارة في الموقف الذي اتخذه الزعماء الروس لصالح بني إسرائيل . . وتوهمهم، أو إيهامهم الناس، بشكل أدق، أن التجربة اليهودية ستكون مثلاً اشتراكياً يحتذى به في الشرق العربي ! !

وموقف روسية، فيما بعد، من ديمومة إسرائيل وضمان أمنها، والإعانة على ذلك بدعم المحاولات السلمية الهادفة إلى تصفية القضية الفلسطينية معروف لدى الجميع . .

فإذا ما تذكرنا الدم اليهودي الذي يتدفق في شرايين الحركات الشيوعية في العالم، ووعد (ماركس) الشهير ليهود العالم بتسلّم زمام القيادة من خلال الثورة الشيوعية . . عرفنا كيف تكون فلسطين ساحة للّقاء المفقود بين القومية والمذهبية . . وأما ما تشنّه أجهزة الإعلام الروسي ضد السياسات الإسرائيلية من حملات فليس سوى تغطية مكشوفة لتحقيق مزيد من المصالح القومية والمذهبية على حساب العرب.

ومهما يكن من أمر فإن البعد القومي يزداد طغياناً يوماً بعد يوم، على البعد المذهبي في السياسات الروسية.. وكان ماركس قد قال بأن القومية مجرد إفراز بورجوازي يزول بزوالها..

وتأتي الضربة المضادة من التجربة الماركسية نفسها!!




اللعبة الساذجة...

أشد دجلاً وشعوذة وبُعداً عن الحق من محترفي الدين وجهلته ومرتزقته، من يجعل حياته وفكره ردّ فعل لهؤلاء.. فتقوده اللعبة الساذجة إلى خرافة الإلحاد..

تُرى كم من الناس مارسوا هذه اللعبة، فانساقوا وراء ردود فعل خاطئة، لمواقف خاطئة، إلى مواقع خاطئة؛ فاعتقدوا أنها الصواب وأن ما دونها الباطل؟

كثيرون جدّاً.. ويستطيع المرء أن يلتقي بحشود منهم في كل مكان، لأن اختيار الطريق السهل هو الذي يستهوي دائماً، الفئات الأكثر عدداً.. ولهذا يؤكد القرآن الكريم مراراً حقيقة: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[1]..

والتزام الحق وتنفيذ متطلباته، يحتاج إلى جهد.. إلى مقاومة.. إلى شحذ الهمة لمجابهة الضغوط ووقفها والتفوق عليها..

أما هؤلاء (المنساقون) بردود الأفعال؛ فإنهم لا يملكون جهداً ولا يبذلون مقاومة ولا يشحذون هممهم للمجابهة والتفوق.. إنهم أشبه بقطع من الفلّين الخفيف، يستجيب للتيار فيسوقه ذات اليمين وذات الشمال.

وليس سلوكاً علمياً يمتلك أيما قدر من المنطق، أن تترك نفسك إزاء الموقف الباطل، تنساق إلى موقف أكثر بطلاناً منه..

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٧٠.

والسلوك العلمي هو بعكس هذا تماماً.. أن ندرس الباطل، ونتعمق فيه، ونحلل معطياته، لكي نتجاوزها جميعاً، وبقدر الإمكان، لا برد فعل معاكس إلى جهة غير معلومة، ولكن بوعي مسبق بالمصير الذي سيتحقق على ضوء هذا التجاوز المدروس..

إن الحقيقة الأولى التي سيكشف عنها السلوك العلمي هي أن العقيدة، أو الدين، شيء وطرائق التعامل معها، وتنفيذها، شيء آخر.. فما أكثر ما شوّهت العقائد، وزيّفت الأديان من قبل الأيدي التي تمتد إليها، والعقول التي تتعامل مع سطورها.. وتكون نتيجة هذا حشود من الجهلة، والمرتزقة، والمحترفين..

لكن هذا لا يمنع من رؤية الجوانب الأخرى للواقع.. إن العقيدة مسألة أخرى غير هذه التطبيقات المنحرفة، وإن هنالك كذلك، من قدروا على تجاوز الامتحان العسير، وتمكنوا من التعامل مع العقيدة بإيمان وذكاء وإخلاص، فأصبحوا مترجمين بحق، على مستوى السلوك البشري، لمعطيات العقائد والأديان.

ونسأل النماذج الفلّينية الذاهبة، بلا إرادة أو عزم، إلى زوايا الكفر والإلحاد، لماذا لم (تتأثر) بهذا السلوك المضيء، وترى هذا الجانب الأكثر إنارة من الواقع؟

والجواب يكمن دائماً في الميل صوب الاختيار السهل.. فإن سهولة الاندفاع برد فعل ساذج بسيط صوب خرافة الإلحاد.. تقود إلى سهولة أخرى.. إن هذا الموقع لا يكلف الذاهبين إليه أي التزام، من أي نوع كان.. بينما تحمِّلُ حقيقةُ الإيمان صاحبَها الكثير الباهظ من الالتزامات.. لكن قيمة الحياة البشرية، ومتعتها الحقيقية الصعبة، لا تتحقق بالسهولة أو بالمجان.. ولابد من دفع الثمن الباهظ..

معبّدو طرق..
أم مهندسون؟!

يوماً بعد يوم، ومن خلال النماذج المتزايدة، للحاصلين على شهادة الماجستير والدكتوراه في العلوم الإنسانية، وبخاصة الأدب والتاريخ، يتأكد أن (الأكاديميات) بوضعها الراهن تخرّج منظفي أتربة، كما وصفهم أزوالد شبنغلر مؤلف كتاب «تدهور الغرب».. تخرج راصفي طرق، والمفروض أن تكون مهمتها تخريج مهندسي طرق.. وثمة فرق كبير بين الراصف والمهندس.. بين المنفذ محدود الرؤية، وبين المخطط طليق الرؤية.. بين المتّبع، وبين المبدع..

إنه يتوجب على الأكاديميات أن تضع حدّاً لتخريج الأسود والأبيض، المتعلم والمثقف، ولا أقول الأميّ والمثقف.. رغم أن التعلّم هو الخطوة التالية للأمية.. ومن ثم فهي لا تعني شيئاً!!

يتوجب على الأكاديميات أن ترسم من الضوابط، وتضع من مناهج العمل، ما لا يتاح معه إلا للمثقفين.. للباحثين الكبار.. لأولئك الذين يملكون رؤية متفلسفة شمولية الاتجاه وقدرة على الإبداع.. لا تتيح إلا لهؤلاء أن يحصلوا على شهادات التخصّص، ويدلفوا إلى الجامعات لكي يتولوا العمل فيها، من أجل كسر الحلقة المفرغة، وتوجيه الطلبة الجامعيين ـ بالتالي ـ وفق منظور جديد يسعى إلى تخريجهم، وهم أكثر كفاءة وعلماً وثقافة وإدراكاً..

إن أكاديميينا هم أشبه بنسّاخ العصور القديمة.. يعرفون كيف يستنسخون الحقائق وينضدونها، وتتمثل (العلمية) في نظرهم باستنساخ أكبر قدر من النصوص بأكبر قدر من الأمانة، ثم عرضها مرصوفة كشواهد القبور في بحث أو مقال دونما أي قدر من التحليل أو الإبداع، دونما أية محاولة لتجاوز قشرة النصوص الخارجية من أجل استبطان معناها، وإعطائنا صورة أكثر صدقاً وحيوية عن (شخصية) الحدث (التاريخي)، وملامحه، وتركيب نسغه الذي يمنحه القدرة على الحركة والحياة.. وهم يدافعون عن عجزهم بالقول بأن محاولات كهذه قد تبعدهم عن الروح (العلمية)..

يستطيع أي منكم أن يجرب.. أن يقوم بعمل إحصائي لتبيّن منحنى (الإبداع) في معطيات أفواج الخريجين طيلة العقود الثلاثة الأخيرة.. عدد كبير ومحصول نادر شحيح..

ولقد أصبح من المسلّم به أن مجرد قبول طالب ما في مرحلة من مراحل الدراسة العليا، يعني حتمية حصوله على شهادة التخصص: الماجستير أو الدكتوراه.. بغض النظر تماماً عن حجم قدراته الحقيقية، وعما يمكن أن يقدمه في المستقبل على مستوى البحث أو التدريس.

ويزداد الفصام النكد بين التخصص وبين الإبداع الحقيقي، عندما يتعرض هؤلاء الأكاديميون الصغار بالدراسة والتحليل لجانب من كتاب الله أو سنّة رسوله عليه السلام.

ولقد قرأت لأحدهم مقالاً عن القرآن في كتاب (القرآن: نظرة عصرية) وكنت قبلها بقليل قد أنجزت قراءة أحد أجزاء (الظلال).. هنالك بدا واضحاً البون الشاسع بين الأسلوب الحي الذكي، المتماسك المنطقي المتدفق المليء حرارة وذكاءً وإخلاصاً، وبين أسلوب بارد، مفكك، كأنه يخرج من فم يتثاءب أو إنسان ذاهب في طريقه إلى غرفة النوم، فضلاً عن

عدم ترابطه، وما يتضمنه من تناقضات، وما ينفعل به سلباً من ضغوط معاصرة، تجعله يتعامل مع كتاب الله بطرائق التشريح المختبري المادي الميت، ويسقط في أذهان الطلبة والدارسين حشداً من التصورات السالبة، المهتزّة، عن هذا الكتاب العظيم..

ذلك هو نموذج من بعض المعالجات الأكاديمية للقرآن، ولا أقول جميعها، لأن في بعضها الآخر أعمالاً إبداعية هي بمثابة القمم في ميدان علوم القرآن.. وتلك هي الجناية التي ترتكب في الجامعات بحق القرآن..

إن الفرق بين صاحب (الظلال)، وصاحب مقال (نظرة عصرية) هو أن الأول يتحدث حديث من يتهيّأ للشهادة، والآخر يتحدث حديث من يتهيّأ للنوم!!

وشتان..




الاستراتيجية.. والتحريف!!

كثيراً ما تحرّف قضايا أساسية في الماركسية من مثل وقف الثورة على مستوى العالم.. والوفاق الدولي مع المعسكر الرأسمالي وزعيمته أمريكة.. واعتماد تفوقه التقني والإنتاجي لتنمية اقتصاديات الاتحاد السوفييتي، وسد حاجته إلى المواد الاستهلاكية.. ومن ثم تصعيد الصراع ضد دولة ما من دول المعسكر الاشتراكي، كما يحدث مع الصين الشعبية.. إلى آخره.

وهم يبررون هذه التحريفات باعتبارها (تكتيكاً) مرحلياً وليست (استراتيجية) بعيدة المدى.. رغم أن بعض هذه التحريفات يقاطع، وبشكل حاد، معطيات الماركسية الأساسية، ويضرب في الصميم عمودها الفقري..

ومعنى هذا أن الماركسية أصبحت، بمرور الوقت، نظرية معرضة للتحريف والتغيير والتزوير والتبديل، تحت غطاء لعبة الاستراتيجية والتكتيك.. وأنها تفقد بالتدريج صلابتها وإلزامها..

هذا يدل من الجانب الآخر على أن معطيات الماركسية، لم تعد صالحة بتمامها لمطالب القرن العشرين، ومصالحه، وضروراته.. لم تعد صالحة تماماً، ولمّا يمضي على بدء تجربتها سوى نصف قرن أو يزيد..

إذاً ماذا سيحدث بعد قرن أو قرنين من الزمن؟!

انقلاب شامل على الكثير من مواضعات الماركسية ومنطلقاتها.. وتحرك من زوايا ومواقع لم تخطر قط على بال ماركس.. وأنجلز.. ولا حتى على بال لينين وتروتسكي وستالين من بناة الدولة الأوائل..

والشهادة تأتي هذه المرة من صميم التجربة الشيوعية نفسها.. إن التطبيق هو ـ بحق ـ المحكّ الأساسي لاختبار النظريات.. وها هي النظرية قد اختبرت، ويوماً بعد يوم تتحطم أبعادها الرئيسة، أو تلغى، أو تبدّل وتحوّر.. باسم الاستراتيجية والتكتيك..

وتأتي أيضاً من صميم الحركات الشيوعية في العالم خلال ثوراتها من أجل الوصول إلى السلطة، وتحقيق ما يسمّى بحكم الطبقة العاملة.. فما أكثر الانحرافات التي مورست فيها، وما أكثر التناقضات التي عانتها.. بل ما أكثر الخيانات التي اضطرت إليها.. باسم التكتيك..

ولن ينسى أحد موقفهم من قضيتنا الأساسية فلسطين.. إنه موقف متناقض حقّاً.. فيوم معنا ويوم علينا.. وهم يقولون: إنها ضرورات التكتيك..

والشهادة تأتي كذلك من أحد أطراف المعسكر الشيوعي نفسه.. الصين.. التي ظل زعماؤها، ولا يزالون، يتهمون السياسات السوفييتية بالتحريفية.. ولا يمكن أن يكون هذا التأكيد المستمر مجرد حملات إعلامية.. ولا بد أن تكون وراءه ممارسات وممارسات..

كما أن الشهادة تأتي من صانع النظرية نفسها.. ماركس الذي أكد بإلحاح على أن حضارة ومعطيات أي عصر من العصور إنما هي انعكاس صادق لعلاقات ذلك العصر الإنتاجية، وقاعدته المادية، التحتية، التي تنبثق عنها سائر الممارسات..

ولقد جاء ماركس بنظريته في منتصف القرن التاسع عشر.. ولن يماري أحد في أن القاعدة المادية لذلك العصر.. علاقاته الإنتاجية.. أدواته الإنتاجية.. هي غير ما أصبحت عليه في القرن التالي، وبخاصة في النصف الثاني منه.. وكان لابد أن تتبدل الممارسات، وتتغير الخطوط والمساحات

في جوانب عديدة من الماركسية.. فلو أن التجربة نفذت في النصف الثاني من القرن الماضي لكان بالإمكان إحداث تطبيق حرفي.. ولكنها تنفذ في النصف الثاني من القرن العشرين.. وكل شيء قد تغير بدرجة أو أخرى.. فكان لابد من التطبيق (التحريفي)..

وفرق كبير بين التطبيقين..

ولكن البركة في (التكتيك)!!




القدر وعربة توينبي!!

أعود مرة أخرى للحديث عن مسألة القدر والحرية.. كنت أحاول في إحدى المحاضرات أن أرسم على اللوحة إيضاحاً لرفض المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي فكرة دورية التاريخ، بسبب من أن الواقعة التاريخية إن كانت تشابه حركة العجلة حول محورها، وهي حركة دائرية ثابتة إلا أن هذه الحركة نفسها تقود العربة بمجموعها إلى أماكن أخرى، ولا تعود إلى نقطة البدء، بعدها، أبداً..

رسمت دائرتين، وقبل أن أُتم الخطوط خطرت ببالي هذه الفكرة: ماذا لو توقفت في الرسم الإيضاحي عند هذا الحد؟ أليس بمقدور أي واحد من الطلاب أن يقول: إنه لا معنى مطلقاً لهذا الرسم؟ ولكن بمجرد أن ندرك بأن هناك لمسات أخرى لاستكمال التخطيط فإننا سنقتنع بأن وراء هذه الجزئيات المفككة التي لا معنى لها هدفاً أكبر.. هدفاً مبرمجاً يسعى إلى تحقيق غاية محددة.

وهكذا واصلت الرسم حتى انتهيت من استكمال صورة العربة، وأوضحت للطلاب المعنى المطلوب، ثم قلت: هكذا يخطئ الناظر إلى تفاصيل وجزئيات حياتنا اليومية، فهو قد لا يجد أي معنى لأحداثها المفككة، العابرة، المتناثرة.. ولكن بالنظر إليها ككل، سيجد أن هنالك برنامجاً يمنحها المعنى المطلوب.. ومن ثم فإن سائر جزئيات حياتنا، خيراً أو شرّاً، سلباً أم إيجاباً.. هي في الإطار الشامل لعلم الله سبحانه ومشيئته، خطوات هادفة لتنفيذ برنامج إرادته: حكمة الله سبحانه.

ومن جهة أخرى، يخطئ الذين ينظرون إلى العربة في أعقاب استكمال رسمها دون أن يعرفوا تفاصيل الموضوع، ويتساءلوا عن الحكمة من رسم عربة بسيطة كهذه في محاضرة عن فلسفة التاريخ..

وهكذا.. فإن الذين يقفون عند حدود الجزئيات، ولا يتريثون حتى تستكمل خطوطها.. والذين سيجيئون من (الخارج) لإلقاء نظرة سريعة عابرة على الواقعة دون فهم عميق لجزئياتها وعناصر تركيبها.. هؤلاء وهؤلاء سيسيئون ولا ريب فهمَ مسألة (القدر) في حياتنا البشرية..

والقرآن الكريم يحذرنا من الموقفين، في آيات عديدة، فهو ـ على سبيل المثال ـ يطلب منّا ألّا نتسرع الأمور فنفرح للكسب العابر ونحزن للواقعة المبهظة.. وإن علينا أن نتريث؛ فإن وراء هذه الجزئيات هدفاً مبرمجاً قد تنقلب معه الصورة ـ بعد اكتمال الخطوط ـ رأساً على عقب: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[١]. ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾[٢]. ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾[٣]. ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾[٤].

وهو من جهة أخرى ينعي على الذين يقفون عند ظواهر الأشياء، ويطلب أن يتوغلوا إلى الأعماق لإدراك المغزى الحقيقي بعيداً عن السطح المكشوف: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[٥].

قلت لصديق لي: أنت حر الآن حرية مطلقة في أن تفجر هذا الجدار.. إذا كان الله سبحانه يعلم هذا مسبقاً، فإن هذا لا يرتطم مع إرادتك في

---

(١) سورة النساء، آية: ١٩.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢١٦.
(٣) سورة الحديد، آية: ٢٣.
(٤) سورة آل عمران، آية: ١٥٣.
(٥) سورة الروم، آية ٧.

تفجير الجدار. . ذلك أننا لا نستطيع أن نجمع، أو نقارن، أو نقيس، أو نطرح، أو نضيف. . علم الله سبحانه إلى إرادتنا. . إن هذا مستحيل. . إنه كمحاولة جمع ثلاث برتقالات إلى حبتين من الرمل. . أيمكن حسابياً أن نقول: إنها تساوي خمسة؟!. .




خرائب العمارة الفرويدية

المعاول التي وجهت إلى نظرية التفسير الجنسي للتاريخ، التي قال بها سيغموند فرويد، أخذت تزداد كثافة ووقعاً.. وهي تصدر فيما تصدر، عن تلامذة المدرسة التحليلية نفسها.. فثمة ضربة هنا وضربة هناك.. فإذا بالنظرية تغدو في العقود الأخيرة أشبه ببناء منهار أصابه رشاش من القنابل والصواريخ فغدا خرائب وأطلالاً.. وكان قبل نصف قرن، بل قبل ثلاثين سنة فحسب عمارة سامقة تسلب واجهتها العقول، وتبهر الأبصار..

لقد قيل كثيراً في نقد النظرية: المنهج والمعطيات، وبمجرد نظرة على الصفحات الأخيرة من الجزء الخامس من كتاب سوليفان القيّم (حدود العلم)، نعرف مدى تهافت النظرية، واتساع ثغراتها، وتأرجحها وظنّيتها، وبعدها عن اليقين.. هذا إلى أن البدائل التي طرحها يونغ وأدلر وغيرهما، والتي لا تتجاوز هي الأخرى حدود الظن والتخمين إلى اليقين المطلق.. هذه البدائل تدل على أن ما قاله فرويد ليس هو الصواب المطلق، وأنه ليس بمقدور أحد، كائناً ما كان في علمه وعبقريته، أن يدّعي احتكار المعرفة في قطاع ما من قطاعات العلوم المختلفة.

هذا مع التحفظ الذي يتوجب أن يطرح هنا، وفي كل نقد يوجّه إلى نظرية ما من النظريات، من أنها تتضمن جوانب ذكية باهرة، وضعت في دائرة التصوّر والرؤية، الكثير من معطيات الإنسان النفسية، الغامضة، المعقدة، في طبقات وجوده البعيدة، كما أنها علّلت الكثير من سلوكياته أفعالاً وردود أفعال على السواء.

بعرض الفرويدية على الموقف الديني والإسلامي على وجه الخصوص، من النفس البشرية، تتعرض لمزيد من الضربات، وتتهاوى من عمارتها حجرات وشرفات.. هنالك على سبيل المثال الرؤية الإيمانية النقيضة لرؤية فرويد للضمير الباطن، والكبت، التي ترى أن ضغط المشاعر والإحساسات الجنسية المخجلة في أعماق الذات، وعدم إتاحة المجال كي تبرز واضحة للعيان، وتصرّف في مجاريها الخارجية، الطبيعية، المكشوفة أمام المجتمع، إنما يتحقق لأنها (عيبٌ) غير مقبول.. هذا بينما تؤكد الرؤية الايمانية، على أنه ما دام الله سبحانه، وهو أحق من يُستحيا منه، يطّلع على السرّ وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويحضر إزاء تجربة كل إنسان بشتى أبعادها الظاهرة والباطنة، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، ما دام الله سبحانه يطلّ على أعماق السرائر حيث تتعرى أمام علمه الشامل، وتتداح ستائرها.. فإن الإنسان، بدلاً من أن يكبت ويغطي ويتأزم.. يسعى إلى التنظّف والتخفّف والتوحّد في أعمق طبقاته النفسية.. فهو لا يهمه أن تبرز عيوبه، أو ما يظنه كذلك، للناس، أو لا تبرز، لأن الله، السلطة الوحيدة التي يخافها ويخشاها، يعرفها وهي في لحظات تمخضها الأولى.. إن (التجربة) ها هنا تأخذ بُعداً آخر يختلف كلّية عما تطرحه الفرويدية.

وثمة مسألة أخرى.. إذا كان قد ثبت تجريبياً (معملياً)، كما ترى نظرية التحليل النفسي، أن اللا شعور، أو اللا وعي، هو تجاوز للزمان والمكان، وتحدٍّ للموت والتآكل الذي تعانيه الخلايا المادية، فلماذا لا تكون الروح كذلك.. كياناً مستقلاً، فوقياً، متجاوزاً، متحدياً، غير قابل للفناء، ولا متأثر بعمليات التعرية والتآكل التي تصيب الجسد؟ ما الذي يمنع النظرية من تقبّل فكرة الروح.. أو بالأحرى حقيقة الروح؟

وغير هذا وذاك، الكثير مما نستطيع أن نعثر عليه بمجرد الاطّلاع على كتابي محمد قطب القيّمين: «الإنسان بين المادية والإسلام» و«دراسات في

النفس الإنسانية» ويعدّ الأخير ـ بلا ريب ـ أكثر الدراسات الإسلامية عن النفس الإنسانية عمقاً ونضجاً..




الإنسان.. لا القاعدة المادية.. هو الذي يلتزم

إن مسألة الكدح والإشباع مسألة (نسبية) على مستوى صراع المبادئ وعلى مستوى الدولة العقائدية..

في الحالة الأولى، ماذا لو وجد الثوار أنفسهم، وقد أتيحت لهم فرص الإشباع: هل يمكن إخراجهم من حظيرة الثورة؟ هل أن الثائر يجب أن يكون كادحاً، أو معدماً بالضرورة؟ ألا يوجد العكس؟ الكثير من الواجدين الذين تحولوا بالثورة إلى كادحين معدمين.. والكثير من الكادحين المعدمين الذين تحولوا بالثورة إلى مترفين؟

إن المسألة تعود بنا دوماً إلى الالتزام الأخلاقي، فالمقياس خلال عملية الثورة، وبعد نجاحها، هو مدى صمود الثائر أو المسؤول أمام إغراء المال.. إن التاريخ الإسلامي في عصر رواده الكبار يتألق ها هنا مما لا نجده في تاريخ أية أمة أخرى في العالم..

فليس ثمة حتمية إذاً بين الثورة وبين الكدح.. ما أكثر الكادحين الذين باعوا أنفسهم للشيطان.. أما المترفون، فالمفروض أن أكثريتهم الساحقة مع الشيطان.. ونستطيع أن نتأكد من هذا بمجرد قراءة واحدة في كتاب الله.. لكن هذا لا يمنع من انشقاق عدد منهم، والانتماء إلى دعوات الحق.. والعدل.. إلى الثورات.. وفي عصر الرسول ﷺ آثر عدد غير قليل من هؤلاء أن يتمردوا على مواقعهم الاجتماعية.. رغم علوّها المنظور،

وضماناتها. . وينتموا إلى الدعوة الجديدة بكل ما يعنيه ذلك من مطاردة، وتغرّب، وإبادة، واضطهاد.

إن من المهم في العملية الاجتماعية البحث عمّن يملك وتحليل موقعه، ولكن ما هو أكثر أهمية من ذلك، هو البحث عن كيفية التصرف في الملكية. . كيفية حمايتها من السرقة والابتزاز. . إن المسألة من هذه الزاوية تتضاءل معها قضية: لمن تكون المنفعة؟ ويبرز ما هو أهم منها: المبادئ التي تنظم المنفعة وتحكمها. .

بعد نجاح التجربة نجد عدداً من كبار الثوّار يحتلون أرقى المناصب، ويحيون ـ بالضرورة ـ حياة أكثر رفاهية من فرّاشيهم الكادحين، الذين يعملون في دوائرهم. . من سائقي سياراتهم. . ولن يمنع هذا من أن يظل الثائر ثائراً، ويظل أكثر فاعلية وجدوى. . بغض النظر عن طبيعة حياته الاجتماعية. . رغم أن الثوّار الكبار حقّاً، آثروا ـ ها هنا أيضاً ـ أن يتساووا مع الكادحين. . وتلك ـ والحق يقال ـ لحظات باهرة في تاريخ البشرية. . ولكنها لحظات نادرة. . وقد التقينا بها وعايشناها في عصور تاريخنا المضيئة. .

إن وجود سلّم للخدمات الاجتماعية أمر واقع في أشد الدول الاشتراكية تشبثاً بقيم العدل والمساواة. . وإن إنكاره أو محاولة إنكاره. . لا يعدو أن يكون موقفاً طوباوياً. . مثالياً. . لا يمكن تنفيذه في واقع الحياة. . ليس هذا فحسب، ولكنه يجيء بمثابة تدمير وهدم للعلاقات الحضارية وضروراتها. . بل بداهاتها. . ولن يتحقق فعلاً إلا بأن يعود الناس إلى الصحراء أو الغاب. .

ذلك ما أراد كتاب الله أن يؤكده في إحدى آياته البيّنات. . ولن يعني ذلك أبداً تأكيداً للطبقية بأي شكل من أشكالها. . وإنها لسذاجة بالغة أن يتصور المرء ذلك. . وخبثٌ بالغ أن يريد تفسيرها به. .

وتبقى مسألة الكدح والإشباع نسبية على مستوى الثورة.. أو الدولة.. ويبقى الالتزام العقيدي.. أو الأخلاقي.. هو صمّام الأمان ضد الرجوع ثانية إلى الظلم والطبقية..

إن الإنسان لا القاعدة المادية، هو الذي يلتزم.. أو لا يلتزم..

وأذكر جيداً.. سألني أحد الطلاب والحيرة ترتسم على وجهه: أؤمن أن الإسلام جاء لكي يحقق مبادئ العدل الاجتماعي، وقيمه.. ولكن هذه الآية.. وراح يتلو: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[1].. فحكيت له عن الثوار الذين يجدون أنفسهم بعد نجاح الثورة، وربما قبلها، مضطرين إلى اعتماد سيارات لنقلهم، ودور لسكناهم، وسواق وحراس وفراشين وخدم.. لتطمين حاجياتهم المختلفة من أجل أن ينصرفوا كلية إلى مهامهم الكبرى..

وقد جاء الثوار أساساً لتحقيق مناهج العدل.. أليس في هذا رفعاً لبعض الناس في المجتمع الواحد فوق بعض؟ أليس في اعتماد السوّاق والحرّاس والفرّاشين والخدم تسخير لهم لخدمة من هم أرفع منهم؟

ومع ذلك فليس ثمة من يقول: إن هذا تناقضاً مع العدل، وهدماً لقيمه.. تلك هي هندسة المجتمع في أشد حالاته مساواة وعدلاً.. وإننا نلتقي بعشرات، بل بمئات من الأمثلة والوقائع في صميم المعسكر الشيوعي نفسه، على رفع الناس بعضهم فوق بعض، وعلى اتخاذ بعضهم بعضاً سُخرياً دون أن يكون ذلك ـ في حدوده المعقولة ـ تجاوزاً لقيم الشيوعية ومواضعاتها..

إن المشكلة ليست ـ على سبيل المثال ـ في: لماذا لا يثور الحمّالون، ويتخلصوا من أدوارهم المضنية؟! ولكن المشكلة هي: من يصير حمّالاً

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٢.

ما دام أن هذا الدور ضروري في الحياة المدنية، ولابد من وجوده؟ ثم إن الحمّال القديم الذي تجاوز موقعه لسبب أو آخر، لا يسعى إلا نادراً، إلى تغطية الحاجة إلى هذه الخدمة بنفسه، أو يتذكر ماضيه على الأقل. . بل يزيد الحاجة إليها، ويجد نفسه مرغماً على اعتماد أناس آخرين لأدائها!!

الوفاق
في عالم غير مُتوافق

هل يستطيع المسلم أن يصل إلى حالة الوفاق في عالم غير متوافق.. ولا مسلم، والإسلام كما هو معروف حالة وفاق فردية وجماعية مع نواميس الكون والعالم والحياة وسُننها وقوانينها؟

سؤال كثيراً ما يطرحه المسلمون اليوم على أنفسهم. ويبدو الجواب، للوهلة الأولى، صعباً، لكنه بقليل من التأمل يكشف عنه الحجاب..

إن محمداً عليه السلام وأصحابه رضوان الله عليهم، جاؤوا إلى العالم الخارج عن السُّنن والنواميس، وكانت مهمتهم أن يعيدوه إلى الوفاق.. وبعد جهود عقدين من الزمن، وبقيادة كتاب الله ورسوله الكريم، تمكنوا من تحقيق الانتصار العظيم.. وأصبح المسلم (يحيا) في وسط متوافق يمكنه من التحقّق بالتجربة الاسلامية، ويمنحه قدراً كبيراً من الحوافز والضمانات..

هل انتهت مهمة المسلم يومذاك؟ أبداً فهو في الداخل يسعى إلى الإفادة من حالة الوفاق لتنمية وتصعيد تجربته الإيمانية على مستوى الفكر والجسد والروح، وفي إطاريها الفردي والجماعي.. وهي مهمة دينامية لا تقف عند حد.. وهو في الخارج يتحرك لتوسيع خارطة الوفاق في آفاق العالم ومد رقعة التجربة الجديدة إلى كل مكان.. وهي مهمة تحمل ديناميتها الدائمة هي الأخرى، فلا تعرف حدّاً تقف عنده.

والمسلم في كل عصر لا يعدو أن يكون متواجداً وفق إحدى هاتين الصيغتين: أن يجد نفسه في وسط غير متوافق، فيكون هذا بمثابة التحدي الكبير الذي يستجيش طاقاته الإيمانية وقدراته الجهادية للرد، فيتحرك لتحقيق الوفاق.. أو يجد نفسه في وسط متوافق فيسعى إلى تصعيد تجربته عمقياً.. ومدّها أفقياً إلى العالم كله: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾[1].

والمسألة بعد هذا وقبله، هي مسألة مقدار (العزم) الذي يبذله المسلم لتحقيق أهدافه في امتداداتها المختلفة، وقدرته على (تسريع) إنجازاته بحيث يتضاعف عطاؤها بمرور الزمن، ويزداد حجمه وفق توالٍ حسابي.. وربما هندسي..

فيوم يجد المسلم نفسه في عالم غير متوافق، يتوجب عليه أن يضاعف جهوده، وأن يصبر على بطء النتائج المتحققة، لأنه يقاوم ضغوطاً قاسية، ويتصدّى لإزاحة جدران شاهقة تسد عليه المنافذ والطرقات، وتحجب عنه الضوء والهواء.. لكن ما يمنحه القدرة على مواصلة الطريق إنما هو روح التحدي والبطولة والاستشهاد.. وهو يصارع عالماً ساحقاً لا يسمع نداءاته ولا يأبه لكلماته..

لكنه ما إن تتحقق له الخطوات الأولى في طريق النصر حتى تتضاعف النتائج، وتزداد إسراعاً.. ويتحول الجهد الإيماني إلى فعل تاريخي مشهود، يختزل الزمن والمكان، ويصنع الأعاجيب.. وهي حقّاً ثمرة تستحق أن يبذل من أجلها ذلك الجهد الذي يتعذب من أجله من يتعذب، ويموت في سبيله من يموت..

لا عذر، أنّى يجد المسلم نفسه.. مكتوب عليه أن يتحرك.. أن يقاوم ويدافع.. أن يزيح الجدران، ويفتت العوائق، ويزيل الموانع والعقبات..

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٣.

حتى ولو استغرق ذلك عمره كله.. ولقد قالها الله سبحانه لرسوله نفسه أكثر من مرة: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾[1]، ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾[2]، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[3].

أن نلتزم جانب السلب.. أن نختار السكون.. أن ننسحب إلى الظلال الرطبة، والزوايا الآمنة المطمئنة بحجة أن عالمنا غير متوافق، وأنه لا يعين المؤمن على التحقق بإيمانه.. هذا الموقف الانهزامي مرفوض بالكلية.. والمطلوب.. بل المحتوم.. هو أن ننزل إلى قلب العالم.. فإذا كان العالم غير متوافق؛ فعلينا أن نقلبه رأساً على عقب، إذا اقتضى الأمر، من أجل تحقيق الوفاق..

لا ريب أن ضغوط العالم الراهنة تزداد شراسة.. وإغراءاته وأضاليله وزينته وبهرجه، تمتد وتمتد لكي تخنق المؤمنين حتى وهم يؤدون صلواتهم في المساجد.. وهي ضغوط ما كان المسلم في القرون الماضية يعاني عُشر معشارها، لأنها تتكئ هذه المرة على إنجازات حضارية كبرى، تمنحها القدرة على ذبح المقاومة وسحق أخلاقية التماسك والتوحد والصمود..

ومع ذلك، فالجاهلية هي الجاهلية.. وعلى المؤمن الحق، أن يتحرك في أية جاهلية وجد نفسه يتنفس هواءها الفاسد المسموم، من أجل تنقية الهواء نفسه، وتضييق الخناق على ظواهر العفن والفساد..

ونرجع إلى السؤال الذي طرحناه أول مرة.. فهل يتأتى للمسلم في عالم مريض كهذا أن يتحقق بالوفاق؟

---

(١) سورة يونس، آية: ٤٦.
(٢) سورة الرعد، آية: ٤٠.
(٣) سورة غافر، آية: ٧٧.

والجواب يكمن في حجم المسلم نفسه، وفي حجم تجربته التي يعيشها ويعيش من أجلها.. في كل تجربة تاريخية كان هنالك عمالقة، وكان هناك أقزام.. والتحديات الكبرى هي التي تزيد في حجم الكبار.. أما الصغار فتكنسهم من الطريق..




الخلق الكوني
في آيات ثلاث

في آيات ثلاث يختصر القرآن الكريم، بإعجازه البالغ، قضية الخلق الكوني العظيم، بدءاً وصيرورة وانتهاء..

في البدء شاءت إرادة الله جلّ وعلا أن يخلق الكون.. وهو يحدِّثنا في كتابه الكريم عن لحظات الخلق في أكثر من موضع، ونختار منها هاتين الآيتين: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۞ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[1].

وفي آية أخرى يحدّثنا عن الاتساع الكوني المستمر.. عن صيرورته الماضية إلى الامتداد: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[2].

وفي الآية الثالثة نلتقي بلحظات النهاية: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[3].

وكثيرة هي النظريات والقوانين العلمية التي جاءت لكي تؤكد، وتوضح، بمنطوقها الخاص ما قال به القرآن الكريم.. عن بدء الخلق، وعن اتساع

---

(١) سورة فصلت، الآيتان: ١١-١٢.
(٢) سورة الذاريات، آية: ٤٧.
(٣) سورة الأنبياء، آية: ١٠٤.

الكون، ثم عن انكماشه وطيّه في نهاية الطريق الطويل، ذي الملايين الهائلة من السنين الضوئية.

وسواء تغيرت تلك المعطيات العلمية، كما عودتنا، أو بقيت على حالها، فإن ما يقدمه القرآن الكريم بإيجازه المعجز يكفي لكي يغطي حاجة السايكولوجية البشرية: ذهناً وروحاً ووجداناً، وتطلعاتها حول المنشأ والصيرورة والمصير..

تلك هي ميزة العقائد السماوية، وميزة الإسلام على وجه الخصوص، إنها تمنح أجوبتها عن المسائل الكبرى التي تجابه الإنسان.. بإيجاز بالغ.. وهذا يكفي.. فما يهم الإنسان هو فهم سُنن العالم المحيط، لإعماره وتنفيذ مقتضيات خلافته في الأرض، جاعلاً عبادة الله سبحانه هدف هذه الخلافة ومبرّر وجودها واستمرارها.. وليس ثمة ضرورة بعد هذا لكي يكدّ ذهنه في البحث عمّا جرى قبل ملايين الملايين من السنين، ولا عمّا سيجري بعد ملايين الملايين من السنين، ولا عمّا هو جارٍ فعلاً في آماد شاسعة تفوق حتى قدرته على التصوّر والتخيّل..

ولقد سعى كثير من الفلاسفة الميتافيزيقيين إلى خوض غمار هذه المجاهيل بأدواتهم الحسّية والعقلية المحدودة.. بحثاً عن متناهي الأول وواجب الوجود، ونهاية الكون.. وعادوا بعد جولاتهم المضنية تلك بأكداس من الظنون والتخمينات، التي لا تتضمن يقيناً مطلقاً.. وكان أحرى بهم أن يقفوا عند حدود ما قدمته لهم كتب الله المنزّلة، ويتجهوا بطاقاتهم العقلية إلى ساحتها الحقيقية للكشف عن سُنن العالم وإعماره..

وفرقٌ كبير بين جهود فلاسفة ظنّيين كهؤلاء، وبين محاولات العلماء للكشف عن بعض جوانب الخلق الكوني بأساليبهم وأدواتهم الأكثر إقناعاً وتبصّراً.. ومع ذلك فبينما يتواضع العلماء قائلين بأن ما يكتشفونه عبر

أبحاثهم، قد لا يكون يقيناً مطلقاً، ولن يكون.. نجد الفلاسفة يطرحون ادّعاءاتهم في أن ما توصلوا إليه هو الحق المطلق، وأن فلسفاتهم هي الكشف النهائي عن منشأ الكون، وصيرورته ومصيره: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[١].




(١) سورة النجم، آية: ٢٨.

حكاية أستاذ منشقّ

الإنسان هو الذي يمنح المرحلة التاريخية لونها وطعمها.. هو الذي يعطيها صيغتها.. وليس ما يقال من أنه رهين بمنطق التبدل بوسائل الإنتاج..

إن الإنسان القادر على العطاء في بيئة إقطاعية أو رأسمالية، هو نفسه القادر على العطاء في بيئة اشتراكية أو شيوعية.. وهو في كلتا الحالتين العامل الوحيد لمنع الاستغلال والابتزاز في الأولى.. ولمنع الازدواجية والوصولية وبروز الطبقة الجديدة في الثانية..

واللصوص.. والمرتشون.. والخونة.. يمكن أن نجدهم في معسكر رأسمالي.. ويمكن أن نلتقي بهم في معسكر اشتراكي.. وبمجرد إلقاء نظرة على صحف القوم اليومية هنا وهناك، تتأكد لنا هذه الحقيقة.. وتتعزز عندما نلتقي بحشد من السوّاح عاد بعضهم من الغرب، وقفل بعضهم الآخر عائداً من الشرق..

ولولا ذلك لبدأت الدول الشيوعية بإلغاء مؤسسات الأمن والبوليس، وهو ما كانت تحلم به الطوباويات الاشتراكية ولا تزال.. لكن الحلم شيء والواقع البشري شيء آخر.. ولن تقدر قوة في العالم على استئصال نوازع الشرّ في العلاقات الاجتماعية، اللهم إلا باستئصال النوع الإنساني نفسه!!

ولولا ذلك أيضاً لما قامت الثورات، والحركات الاجتماعية، والمحاولات الإصلاحية في قلب الأوضاع الجائرة.. وفي عهود الاستغلال.. والاضطهاد.. والابتزاز والدكتاتورية..

بل لولا قدرة الإنسان على الانشقاق على (الوضع التاريخي) لما برزت تجربة الاتحاد السوفييتي نفسه إلى الوجود..

وقسر الإنسان على أن يكون تعبيراً صرفاً عن الطبقة التي ينتمي إليها.. لا يمثل الحقيقة المطلقة هو الآخر..

فما أكثر الذين انشقوا على انتماءاتهم الطبقية.. وتحركوا باتجاهات مختلفة، قد تكون مخالفة على خط مستقيم لمعطيات الطبقة.. وقد لا تكون.. ولكن المهم أن تعبيرهم تحرّر من شد الطبقة وإلزامه..

إن كثيرين ممن قادوا الطبقات العمالية، أو استخدموها للوصول إلى السلطة، ليسوا من طبقة العمال.. وما يقال من أن العمال هم الذين يصنعون الثورات، ما هو إلا محاولة ماكرة للتغطية على الأساليب والأهداف الحقيقية للمتسلطين على رقاب الناس.. والعمال أنفسهم..

ويوماً.. كان أستاذ جامعي يدّعي الماركسية، باعتبارها موضة العصر، وسلّم الوصول، يتحدث عن حتميات الطبقة.. والتركيب الطبقي.. والحركة التاريخية التي هي بمثابة تعبير طبقي صرف.. إلى آخره..

سأله أحدهم: ولكنك يا أستاذ تنتمي إلى عائلة محسوبة على البورجوازية؟ أجاب الأستاذ: وماذا في ذلك؟ لقد انشققت على طبقتي.. وآثرت أن أنتمي إلى طبقة العمال!!

آثر أن ينتمي إلى طبقة العمال، وهو لم يدخل يوماً مصنعاً، ولم يحرّك نولاً..

آثر.. أي اختار بحرية.. ومعنى هذا أنه يناقض بسلوكه حتميات النظرية!..

وسؤال آخر:

ترى.. كم من أمثال الأستاذ المنشق أعلن نفسه نصيراً للعمال.. واحداً منهم.. من أجل أن يراه القوم بملابس الكادحين.. وبطنه تتلوى ألماً من التخمة.. وجيوبه تتهدل.. وتتماوج من كثرة ما حمّل فيها من أموال؟!




القناعة السهلة والقناعة الصعبة

إن انتشار المادية هذا الانتشار الواسع في بعض الفترات، إنما يعني سهولة رفض ما وراء الحواس.. ورخصه.. ومجانيته.. ولذا يتحقق بين الطبقات الأمية من الناس، ممن لا يحسنون القراءة والكتابة..

ورغم أن بعض الفلسفات المادية على درجات كبيرة من الصعوبة والتعقيد، فإن ما يجذب الناس إليها ليس هذا الجانب الصعب، إنما هي محصلتها النهائية سهلة القبول: المادية والإلحاد.. إن من البساطة بمكان نفي أو هدم الوقائع الغيبية، اللا مرئية، كاشتراك الملائكة في القتال في معركة بدر على سبيل المثال، والاعتقاد من ثم بكل ما هو مادي، قريب، سهل التصوّر، بسبب قربه من خبراتنا، كثيف الإقناع، بسبب من تجاوبه مع معطياتنا الحسّية، وهذا هو الذي يجعل النظريات المادية، تستهوي هذا العدد الكبير من الناس لأنها تقدم لهم القناعات السهلة القريبة، الواضحة، الملاصقة..

وتبقى القلة، القلة الفذة، هي التي تقدر على تجاوز المباشر، السهل، إلى الصعب غير المباشر.. والانتماء إلى الحق يقتضي دائماً القدرة على التجاوز، والبُعد، ومكابدة المشقات من أجل الوصول إلى قناعاته الصعبة، غير المباشرة، والتي لا تمنح نفسها بالمجان..

وهكذا فإننا لو رسمنا منحنىً متوازياً أو خطّاً بيانياً للعلماء المؤمنين والملاحدة، فإننا سنجده يرتفع إزاء المجموعة الأولى وينخفض إزاء

المجموعة الثانية، وهذا لا يقتصر على فترة زمنية معينة، وإنما يمتد إلى كل الفترات..

وإذا كانت معادلة الإيمان والإلحاد، تجنح باتجاه الأكثرية الملحدة على مستوى الجماهير، فإن الأمر الذي يمنحها قدراً من التكافؤ، ويعود بها بين الحين والحين إلى حالة التوازن هو أن الإيمان نفسه، مُغْرٍ بنفس القوة التي يملكها إغراء الإلحاد، إن لم يَفُقْها، بسبب من تواجده هناك في أعماق الفطرة.. لكن علينا ألّا ننسى أن التزام الإيمان الصعب، وتحلّل الإلحاد السهل، كثيراً ما يعود بالمعادلة لغير صالح الطرف الأول، لذا يكرر القرآن الكريم إحدى مقولاته بهذا الصدد: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾[1]، وقد تكون هناك (أكثرية) من المؤمنين، لكن الالتزام بالحق الذي يقتضيه الإيمان يبقى محصوراً في قلّة منهم..

ومن أجل كسر الحصار، وتحقيق قدر من التوازن بين الطرفين لصالح الحق، وكسب الأكثريات الجماهيرية.. تسعى آيات الله البيّنات، ليس من خلال عرض لاهوتي صعب معقد عقيم، ولا من خلال أطروحات نظرية تستتبع إرهاقاً ذهنياً قد لا يقدر عليه الجميع، ولا من خلال جدل كلامي جاف لا يستثير وجدان الإنسان وكينونته.. بل من خلال تدفق حيوي مؤثر.. إلى توجيه الإنسان عقلاً وحسّاً ووجداناً إلى حقائق الكون والحياة المحيطة به.. الحقائق الواضحة، البيّنة، والتي لا يحتاج إدراك سرّها المعجز إلى بذل جهد ذهني أو نفسي كبير.. هذا التدفق الحيوي الذي يغطي مساحات واسعة من القرآن، هو الذي يسعى إلى جعل المعادلة أقرب إلى التوازن، وإلى كسب جماهير الناس، مهما

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٧٠.

كانت درجة ثقافتهم، إلى صف الإيمان، ومن ثم ندرك كيف استطاع الإسلام، ولا يزال، كسب الجماهير.. وكيف تمكَّن بهم من تنفيذ نظريته في الجهاد عبر التاريخ..




هذا الرأي العام

ما أكثر ما تتشبث أمتنا في قضيتها الكبرى (فلسطين)، بالأعراف والمؤسسات الدولية. . وما أكثر ما تنحني لمؤشرات ما يسمى بالرأي العام العالمي، وتصدر عن احتمالاته المتوقعة. . أما خصمنا الصهيوني فهو على النقيض منّا تماماً. . طالما استخفّ بها واحتقرها. . وقد انتصر وخسرنا أكثر من مرة. . ومع ذلك لا زلنا نعضّ بالنواجذ على موقفنا المتحجّر من مسألة الأعراف، والمؤسسات، واتجاهات الرأي العام هذه. .

فإذا ما عرفنا ـ كذلك ـ أن الأعراف والمؤسسات الدولية لا تخدم إلّا الأقوى. . ولا تمنح تأييدها وإسنادها وتبريرها إلّا للأقوى. . وأن معطيات الرأي العام ليست مسألة مسطحة، أو حكماً عدلاً، تقف دائماً إلى جانب المظلومين ضد الظالمين. . وإنما هي مسألة مركبة معقدة، وحكم متحيّز ميّال. . أدركنا كم نحن مبالغين، إن لم نكن مخطئين، في إصرارنا على موقفنا هذا. .

نظرة إلى اتجاهات الرأي العام عبر ثلاثين سنة من الصراع مع بني إسرائيل تُرينا كيف أن هذه الاتجاهات لم تنشدّ دائماً، أو حتى غالباً، صوب بؤرة الحق، وأن عقربها كان يتراقص ذات اليمين وذات الشمال، تحركه أهواء وعصبيّات ومصالح وأحقاد وذكريات. .

إن الأوروبي، وسليله الأمريكي، لا يمكن أن ينسى أبداً هزائمه على يد العرب المسلمين، في حقب شتى من تاريخ الصراع بين الغرب والشرق. .

ولا أن يتجاوز عقدته الطائفية، ومؤثراته البيئية والوراثية التي تنفخ في هذه العقدة فتزيدها ورماً وحجباً لمواقع الحق والباطل..

والأوروبي، وسليله الأمريكي، لا يمكن أن يخترق حصار الثقافة الموجهة، ـ رغم ما يدّعي من ليبرالية ـ ضد كثير من المذاهب والتيارات، وعلى رأسها الإسلام.. وهو لا يمكن أن يتسامى على شدّ المصالح وإغراء المال والمناصب والشهوات التي يلوح بها اليهود في كل مكان، ويتلاعبون عن طريقها بعواطف الناس هناك وعقولهم.. ونظرة خاطفة إلى ما يجري في الساحة الأمريكية تكفي شاهداً على ذلك..

ثم إن الأوروبي، وسليله الأمريكي، ليس بقادر، ببساطة، على اختراق خطط المكر اليهودي وتنظيماته وأساليبه المرسومة لكسب الرأي العام، وتوجيهه في اللحظات المناسبة، إلى هدفه المرسوم..

ومن ثم نعرف لماذا لم نحظَ، إلا في القليل النادر، بعطف هذا (الرأي العام) رغم أننا كنا الضحايا في معظم الأحيان؟! ولماذا كانت حشود الأوروبيين والأمريكيين تخرج إلى الشوارع مؤيدة السياسات الإسرائيلية، مندّدة بالعرب متجاهلة حقوقهم المشروعة..؟!

وما لنا ألا نرجع إلى تاريخنا لكي نلتقي واحداً من التعاليم التي منحنا إيّاها القرآن في مسألة كهذه: بعث الرسول ﷺ في السنة الثانية للهجرة بسرية يقودها عبد الله بن جحش، لمراقبة تحركات القوافل المكية، فتوغلت السرية جنوباً، واشتبكت هناك مع قافلة مكية، وأسفر الاشتباك عن قتل قائد القافلة الوثني، وأسر اثنين من أتباعه.. وحدث وأن جاء هذا الاشتباك في الشهر الحرام، فقامت قيامة المكيين وقعدت، كيف جرؤ أتباع محمد على اختراق حُرمة الأشهر الحُرُم وتجاوز الأعراف القبلية المتبعة منذ مئات السنين؟!

والرسول ﷺ نفسه لم يرتَحْ لهذا التجاوز، وأمر بتجميد التصرّف بالأسرى والغنائم.. ولكن كلمات الله جاءت لكي تحسم الموقف..

إنه لا أعراف دولية حيثما كانت هناك قوى باغية تتستر بها، وتتكئ عليها.. لا أعراف والمسلمون يُضطهدون.. ويُطاردون.. ويُفتنون عن دينهم في الأشهر الحُرُم وفي غير الأشهر الحُرُم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ﴾[1].

أتُرانا نتعلَّم من مغزى هذا المؤشر الاستراتيجي الخطير في كتاب الله؟!




(١) سورة البقرة، آية: ٢١٧.

ليس من العلم ادعاء العلمية..

ويقولون: إنها نظرية علمية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.. وإن ما طرحه (ماركس) هو الحق المطلق.. وما وراءه الباطل..

ما طرحه (ماركس) عن التاريخ.. والحاضر.. والمستقبل..

ورغم أن النبوءات مسألة صعبة.. كثيراً ما تُخرِجُ أصحابها عن خط العلم الرصين.. ورغم أن الأديان نفسها اتهمت بالتخريف لأنها تنبأت.. فإن تنبؤات (ماركس) شيء آخر.. تماماً.. شيء هو من صميم العلم لأنه يقوم على اكتشاف قوانين الحركة التاريخية.. والحكم مسبقاً على مؤشراتها المستقبلية..

وكيف تم اكتشاف قوانين الحركة التاريخية؟! يجيبون: بقراءة تاريخ البشرية وتحليل معطياتها الحضارية..

إذا كان (ماركس)، قد ألمّ فعلاً بهذا التاريخ، وأحاط فعلاً بتلك المعطيات.. فإن لكم أن توقنوا بعملية الكشف.. وأن تتهموا المعارضين بالخروج على الموقف العلمي.. ولكن من يضمن ذلك؟ من يضمن أن (ماركس) قد أحاط بالتاريخ والتطور الحضاري علماً؟.

وإذا تركنا حقيقة أن ما ضاع من التاريخ أكبر بكثير مما وصلنا منه، كما يعترف بذلك رفيق ماركس: أنجلز، وهو بصدد التعليق على التراث الإسلامي قائلاً عنه بأنه: «مشتت.. وضاع أكثره!!».. ناهيك عن التاريخ

القديم والتاريخ الأوروبي الوسيط، حيث لم تكن فكرة التدوين التاريخي منتشرة بمقدار عشر معشار ما كانت عليه في حضارتنا.. حضارة القلم والتدوين.. وناهيك عن أن الماركسية اعتمدت بالدرجة الأولى على هذا التاريخ ومعظمه غير مدوَّن!!.

وإذا أغفلنا مسألة أن ماركس بنى قسماً كبيراً من نظريته التاريخية على دراسات تخمينية كما أكد النقاد والدارسون، تناولت مراحل مبكرة من التاريخ الاجتماعي للإنسان.. دراسات تقوم على الظن والاجتهاد.. وليس على أساس من الحقائق المطلقة، ومن ثم فإن التنظير الذي سيعتمدها سيجيء ظنياً.. تخمينياً.. اجتهادياً.. وليس علمياً بالمفهوم الدقيق للكلمة..

إذا تركنا هذا وذاك وجئنا إلى جانب محدّد من التاريخ البشري هو التاريخ الاقتصادي، حيث يتوجب أن يكون ماركس، خريج الاقتصاد، ملمّاً به تماماً، وحيث يتوجب أن تكون الحقائق مطلقة، بما أن الماركسية تتبع ـ بالدرجة الأولى ـ هذه القاعدة التحتية للحركة الحضارية: الاقتصاد.. إذا جئنا إلى هذا الجانب المحدد؛ فماذا سنجد؟!.

لنستمع ـ بإيجاز بالغ ـ إلى شهادة الاقتصادي البولندي المعاصر (أوسكار لانكه)، وهو أحد أكبر أخصائيي اقتصاد الدول النامية.. فهو بعد أن يستعرض جهود الكتّاب الذين اهتموا بدراسة اقتصاد مجتمعات ما قبل الرأسمالية، منذ عصر ماركس وحتى عصر بورشييف، يقول ما معناه: «ولكن هذه الدراسات جميعها مفككة. لذلك فإن الاقتصاد السياسي للنظم الاجتماعية ما قبل الرأسمالية لم يخرج بعد إلى حيز الوجود، باعتباره فرعاً منظماً من فروع الاقتصاد السياسي»[1].

---

(١) انظر كتابه: الاقتصاد السياسي: ١٤٨/١، ترجمة د. محمد سلمان، عن محمد علي نصر الله: «أضواء على نمط الإنتاج الآسيوي» مجلة آفاق عربية، سنة ٢ عدد ٦، ١٩٧٧م.

هذا عن القاعدة الاقتصادية التي بنى عليها ماركس جوانب واسعة من نظريته.. فماذا عن الجوانب الأخرى؟

هل يكون من العلم في شيء أن يجازف أحد فيدّعي أن ماركس قد أحاط بها علماً، وجاءت كشوفه وتنبؤاته بالتالي.. علماً محضاً؟!.




الجنتلمان.. والسوبرمان.. والإنسان المسلم

في الغرب يطلقون كلمة (الجنتلمان) على الرجل الأنيق، المرن في علاقاته الاجتماعية، الناضج فيما يمارسه من أعمال، والذي يملك قدراً من القيم الخلقية تعينه على كسب محبة الناس واحترامهم..

وعندما ينزع هذا (الجنتلمان) بذلته الأنيقة بمجرد أن يجد نفسه بعيداً عن المجتمع الذي يسعى إلى كسب محبته، ومعونته على النجاح.. يبرز لنا الرجل ـ وقد تعرى عن المظاهر المصطنعة ـ بشعاً حقّاً.. كبيت جميل تهاوت (ديكوراته) الخارجية بفعل الزمن، فأطل على الشارع بشروخه وبثوره.. دميماً.. مهدماً.. قبيحاً..

فليس بين هذا (الجنتلمان)، وبين الإنسان الكامل الذي حلم به الفلاسفة أيما صلة حقيقية ما دام أن الجوهر خراب.. وأن (الجنتلمانية) لاتتجاوز نطاق القشرة الخارجية.. وعندها حلم الأوروبيون بالإنسان الكامل.. فجاؤونا بالسوبرمان الذي أوقف عليه الأديب الألماني والفيلسوف المأزوم (نيتشه) الكثير من كتاباته.. وغير (نيتشه) كثيرون حلموا به.. حتى (برناردشو) الأديب الذكي الساخر.. حلم به في بعض مسرحياته.. فهو حيناً الرجل الذي يتفوق على تحديات المرض والتآكل والفناء.. وهو حيناً آخر يتجاوز التحديات الأخلاقية، فيقفز فوقها ـ بقدرة قادر ـ نظيفاً، متوحداً.. غير منقوص.

ورغم أن (السوبرمان) مجرد حلم من الأحلام.. إلّا أنه حلم لم يقدم لنا بشراً سويّاً. إنه يتخيل ما يشبه الإنسان الآلي.. مخلوق يملك قدرات هائلة من المعلومات، أو قدرة هائلة على اختزال الزمن، وحل المشاكل والتعقيدات.. وثباتاً صخرياً عجيباً إزاء الإغراءات والنوازع والرغبات.. ولكنه لن يكون إنساناً كاملاً بحال من الأحوال..

لقد أبرز المجتمع الغربي (الجنتلمان) كمثل أعلى، ولما فشلت المحاولة، عاد العقل الغربي لكي يطرح البديل فحلَّ (السوبرمان) محله..

ولكن الغربي ـ يقيناً ـ ليس بمقتنع بهذا البديل، تماماً كما أنه لم يكن مقتنعاً بسلفه (الجنتلمان).. ومن يدري؟ فلعل محاولة ثالثة تجري للبحث عن المثل المفقود.

وبمجرد أن نقوم برحلة قصيرة عبر مجتمعاتنا الإسلامية.. في الزمان أو في المكان.. فإننا سنعثر ببساطة.. على الإنسان.. ولا أقول الكامل.. فالكمال لله وحده.. ولكن الإنسان السوي، المتفوق، المتوحد، المحبوب.. الإنسان الذي علمه دينه السمح الخلاق.. كيف يتجاوز النقص، والتظاهر، والادعاء.. كيف يصارع قوى الارتكاس والشد إلى أسفل.. وينطلق الى أعلى، متوحداً، خفيفاً، قديراً على التنفيذ الصعب والصبر عليه.. متمكناً من التحقق بالالتزام الأخلاقي بمرونة تثير الدهشة والإعجاب.

إن الإنسان السوي الذي يبعثه الإسلام، يرفض المظهرية (الجنتلمانية) على الطريقة الغربية، لأنه يرفض التمثيل، والتصنع، والظهور أمام الناس بوجه هو غير وجهه الحقيقي الذي يعرفه الله سبحانه جيداً.

كما أنه يرفض المثاليات الطوباوية التي يحلم بها الغربيون؛ لأنها لا تعدو أن تكون إسقاطات نفسية، وسعياً مهووساً للتعويض غير الواقعي

عن واقع مليء بالشروخ.. يرفضها؛ لأن دينه علمه كيف يحترم الحياة.. كيف يكون واقعياً حقّاً.. فلا يجيء تغييره إلّا على خرائط الواقع، ومن خلال حيثياته ومكوناته.. أما الحلم بسوبرمان قادم.. فإنه لا يعدو أن يكون نوعاً من العبث العقلي الذي يرسم ملامح أناس لا يملكون لحم بني آدم ودمهم وأعصابهم.. ولكن صلابة الحديد وبرود المعدن الذي صيغوا منه..

في الرحيل عبر عوالم الإسلام.. في مدنه وقراه.. في شوارعه وأزقته وأحيائه.. في تاريخه الماضي وواقعه الراهن ومستقبله.. يمكن أن نعثر ببساطة على نماذج واقعية حيّة لما عجز الغربيون عن العثور عليه.. ولا يزالون..

ليجرب كل واحد منكم أن يقوم بالرحلة، فإنه واجد حشداً من هذه النماذج الفذة بين أهله وأصحابه.. بين رفاقه وإخوانه.. فإن لم يجد أحداً ها هنا أو هناك، فليلتفت قليلاً إلى الوراء إلى الجيل الذي سبقه فحسب..أناس يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.. يضحكون ويبكون.. يمزحون ويجدون.. يتوقدون ذكاءً.. يتألقون أخلاقاً.. يشعون نظافة جسدية وجمالاً روحياً.. يتضوعون محبة وألفة ووداً.. يثورون كالبركان إذا اقتضى الأمر أن يثوروا.. ويصبرون كالجبال الرواسي إذا اقتضى الأمر أن يصبروا.. أناس لا تفارق البسمة شفاههم حتى وهم يبكون، ولا النور والوضاءة عيونهم وجباههم، حتى وهم يجتازون الدروب المظلمة، بل حتى وهم يغيبون في القبور.. أناس كانوا حاضرين دوماً في قلب العصر الذي ولدوا فيه، وفي صميم الجماعة التي شرفوها بوجودهم، ولأنهم كانوا حاضرين دوماً، فقد أسهموا كل وفق قدراته المتاحة، في تغيير التاريخ.. وفي صنعه كذلك..

أين هؤلاء من (الجنتلمان) الغربي ذي البذلة الأنيقة والروح الخربة التي تنعق في أطلالها الغربان؟ بل أين هم من (السوبرمان) الغربي ذي القلب الفولاذي الذي لا يعرف أخلاق الإنسان.. ولا أشواقه وأمانيه؟.




العملة ذات الوجهين!!

في حياتنا المتمخضة دوماً يبدو الكثير من المواقف والحلول، والتجارب، والممارسات ومحاولات التخطيط.. بل الأفكار والنظريات والقوانين والتشريعات ـ كذلك ـ وهي تحمل في ثناياها السلب والإيجاب.. الخطأ والصواب.. وأن بمقدور أي إنسان يمتلك قدراً من الذكاء، أن يعمل عقله فيها لكي ما يلبث أن يرى وجهها المصيب حيناً، فيقول: إنها لا تخرج عن نطاق الحقيقة.. ووجهها المخطئ حيناً آخر لكي يحكم بأنها تدور في نطاق الباطل.. فيتقبلها في الحالة الأولى ويرفضها في الثانية، فيما يسميه بعض الفلاسفة (مبدأ تكافؤ الأدلة)، أي تعادل أدلة السلب والإيجاب، أو تقابلها في أي من المواقف أو الأفكار التي تطرحها الحياة البشرية..

وإنه حقّاً لأمر محيّر.. دفع عدداً من المفكرين والفلاسفة إلى نوع من التشاؤمية، وصلت ببعضهم إلى نقطة مظلمة، قرّبتهم من العبثية والعدمية، والإحساس الباهظ باللا جدوى.. ما دام أنه لا حقيقة مطلقة هناك.. وما دام أنه ما من موقف يمكن إثبات بطلانه المطلق كذلك..

ونحن في حياتنا اليومية، ومناقشاتنا نستطيع أن نضع أيدينا على بعض ملامح هذه الثنائية المأساوية، في الحكم على المواقف والأفكار والأشياء.. فبدون ما دافع واضح، مبرر ومنطقي، نسعى لطرح والتزام مجموعة من التبريرات، التي تظهر موقفاً ما بمظهر الحقيقة المقنعة، ويندفع آخرون، إزاء الموقف نفسه، بالصيغة نفسها لكي يطرحوا نقائضهم ويصلوا بالموقف إلى حافة الباطل.. وقد تنقلب اللعبة، لغير ما سبب واضح

كذلك، فنطرح أدلة البطلان، بينما يجهد الآخرون أنفسهم لطرح أدلة الإثبات!

وأحياناً يخيل إلى كل واحد منا في أوقات الغفلة والنسيان والانغمار اليومي، أو في لحظات النرجسية والإعجاب بالذات، أن سلوكه يمثل تطابقاً هندسياً باهراً مع المنطق والمعقول.. إلّا أنه سرعان ما يتبين له أن الأمر ليس كذلك.. فإن تفكيراً بسيطاً في طبيعة السلوك يدله على أن بإمكانه من خلال الموقف الواحد أن يختار اتجاهاً آخر أو اتجاهين، وربما عشرين اتجاهاً، يمكن بالاعتياد على أي منها، والاستمرار عليه أن يبدو منطقياً.. معقولاً..

عملة واحدة ذات وجهين، نلعب بها أحياناً برميها في الهواء، فنغدو فريقين؛ يقول أحدهما: إنها ستستقر على وجهها المصور، ويقول الآخر: إنها ستستقر على وجهها المكتوب، وتكون للصدفة وحدها الحكم الأخير في (الحالة) التي ستكون عليها العملة بعد استقرارها على الأرض..

نفس اللعبة تمارس أحياناً كثيرة إزاء الأفكار والمواقف.. وبدون ما سبب واضح ينتمي الإنسان الى هذه الفكرة أو تلك، ويعلن قبوله لهذا الموقف أو ذاك، ثم ما يلبث ان ينقلب عليهما ويتجه للطرف النقيض الآخر..

تلك هي مأساة المعطيات الوضعية.. بما أنها نتاج عقل أو وجدان بشري، قد يخطئ وقد يصيب.. قد يعانق الحقيقة، وقد ينفصل عنها.. إن التناقض يكمن في الإنسان نفسه، وليس في العالم الخارجي، كما تريد أن تصور لنا النظرية الديالكتيكية؛ لأن التوحد الذي يحدث بين النقائض حيناً بعد حين ليس سوى بسبب من الجهد البشري نفسه..

والحل يكمن في خطوة واحدة.. ولكنها خطوة خطيرة.. واسعة.. بعيدة الحدود.. تجاوز التشبث بالأحكام والمعطيات البشرية، لأنها ليست

نهائية بحال من الأحوال، ولأنها تعاني دوماً من مأساة (تكافؤ الأدلة).. تجاوزه إلى الالتزام بمصدر فوقي للمعرفة.. بالدين الموحى به من الله سبحانه..

إن الله سبحانه، وهو أدرى بخلقه، يعلم نسبية القدرة البشرية على المعرفة، وإمكاناتها في الوصول إلى الحقيقة.. ومن ثم يعينها بمنحها قدراً من (الضوابط) والمعارف الشاملة، والمطلقات، والمؤشرات النهائية، لكي تتحرك على هديها عبر صيرورة زمنها الجاري وحياتها المتمخضة.. هناك حيث لا ثنائيات ولا تناقضات.. ولا وجهان للعملة الواحدة، ولا التزام اعتباطي بهذا الجانب من الموقف أو ذاك.. ولا تحويل للممارسات البشرية إلى لعبة عشوائية تقوم فيها الصدفة ـ أحياناً ـ بدور البطولة..

إن الموقف الديني، بما أنه صادر عن الله العليم، يحمل الصواب المطلق.. «نعم» حيث يجب أن تكون، و «لا» حيث يجب أن تكون.. ليس ثمة لا ونعم، معاً، في الموقف الديني، وما يبدو في هذا الموقف أحياناً من ضغوط تبدو موجهة ضد الإنسان ـ في الظاهر ـ أو ممارسات قد تكشف عن بعد سلبي خادع.. يتضح في المدى البعيد أنها قيمة إيجابية ضرورية في التكوين النهائي لصورة الخارطة الشاملة للموقف كله.. وكثيراً ما ينبهنا القرآن إلى ذلك.. إلى ألّا نتسرع في الحكم على المواقف والأشياء، لمجرد أن نرى فيها بعض الفجوات التي قد تكون أشبه بالمسالك التي لابد منها لخروج الهواء الفاسد من أجل التحقق بالصحة والعافية.. ودعانا إلى أن نمد رؤيتنا إلى أبعد المواقع والآفاق.. أن ننتظر إذا اقتضى الأمر.. لكي يتبين لنا البعد الحقيقي للموقف، وهو بُعد إيجابي في كل الأحوال.. أمراً أو نهياً: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾[1]،

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٣.

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[١]، ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[٢]، ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٣].

ومهما يكن من أمر فإن الإنسان سيظل في حاجة إلى هذا المصدر الديني الفوقي الذي يتميز بالشمولية والامتداد، وإلّا طحنته التناقضات وضيعته ثنائيات الموقف الواحد.. فمنذ اللحظة الأولى التي علَّمَ فيها الله سبحانه آدم الأسماء كلها.. وأنزله إلى الأرض.. ألقى في روعه، وأنبيائه من بعد، أن عليهم أن ينتظروا تعاليم السماء، لأن ما تعلمه آدم، في البدء، ليس نهائياً، ولا بدّ من (دين) يقوده وأبناءه من بعده على الطريق المستقيم: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٤].




(١) سورة الحديد، آية: ٢٣.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢١٦.
(٣) سورة النساء، آية: ١٩.
(٤) سورة البقرة، الآيات: ٣٦-٣٩.

لا حوار..
مع منكري البداهات..

تتحرك الماركسية في كثير من أحكامها، وهي لا تدري أنها بذلك تناقض بداهات العلم والتاريخ..

في مسألة الدين ـ مثلاً ـ تحاول أن تحكم على (القبليات) (بالبعديات)، أي: بما حدث فيما بعد.. فتقع في الخطأ..

ذلك أنه ما من مبدأ أو عقيدة أو مذهب، سماوياً كان أم وضعياً، إلّا ويتأثر عبر مسيرته الزمنية بحشد من المعطيات لا علاقة جوهرية بينها وبينه. ونحن ـ مثلاً ـ لا نستطيع أن نرفض نهر (دجلة) ونلغي إمكانية الاستفادة من مياهه، لا لشيء إلّا لأنه ـ عبر مسيرته الطويلة ـ حمل شيئاً غير قليل من الرمال والأكدار!!.

ليس هذا فحسب، بل إنها تتبع ذلك بخطيئة أخرى هي التعميم.. إنها تنطلق من مواقف المسيحية المنحرفة لكي تحكم على كل دين..

وهكذا يغدو الدين في نظر ماركس انعكاساً بورجوازياً.. بينما هو حقيقة أصيلة عميقة في كيان البشرية، وتاريخها الحضاري الطويل.. حقيقة أصيلة.. عبرت عن نفسها في كل العصور، وعلى مدى أحقاب التاريخ.. قبل المرحلة البورجوازية.. وبعدها.. قبل عصر المشاعية الأولى وعبر عصر الشيوعية الثانية..

وها هي الحقيقة في الاتحاد السوفييتي تفرض نفسها وأصالتها.. وترغم رافضيها ـ بهذه الحجة المذهبية أو تلك ـ على قبولها والإذعان لها..

ستالين وهو يستجيش الحسّ الديني لدى الروس لتعزيز قدرتهم على مقاومة الغزو النازي..

الدستور السوفييتي في السبعينيات وهو يعترف ـ بقدر ما ـ بالحرية الدينية، بعد ألف محاولة ومحاولة لاغتيالها وإزالتها من الوجود..

السياسات السوفييتية وهي تذعن لمشيئة الأكثريات الإسلامية في مستعمراتها الإسلامية..

الزعماء الشيوعيون المسلمون ـ إذا صح التعبير ولن يصح بحال ـ في هذه المستعمرات يرغمون القيادة المذهبية لإمبراطوريتهم الروسية على قبول وإدخال بعض قيم الإسلام في صلب النظرية..

ثم.. ها هي الحركة العمالية البولندية تجابه السلطة القسرية، مطالبة بالحرية وبالتحقق الديني.. بعد عشرات السنين من هيمنة الإلحاد..

وغير هذا.. كثير جدّاً..

أين هو التعبير البورجوازي في الموقف الديني وهو يؤكد نفسه في صميم التجربة الشيوعية بعد مرور ستين عاماً على قيامها؟.

بل أين هو التعبير البورجوازي في فجر التاريخ، قبل ظهور البورجوازية بآلاف السنين.. ولمسات الإنسان الحضارية والفنية الأولى.. تحمل شحنات كبيرة من الحسّ الديني والرؤية الدينية؟!.

وإذا كان النبي.. كما تؤكده النبوءة الماركسية!! تعبير عن عصره.. فلماذا لا يكون ماركس نفسه تعبيراً، بفعل أو ردّ فعل، عن عصره؟ هل

يملك الرجل عقلاً خارقاً، يمكنه من الانشقاق عن العصر واكتشاف القوانين العلمية لحركة التاريخ البشري؟ فلماذا ـ إذاً ـ لا يكون النبي ممتلكاً لهذا العقل الكبير، ومكتشفاً؟! ولماذا تكون الأديان خرافات وإفرازات بورجوازية.. ولا تكون الماركسية دجلاً وإفرازات لمظالم القرن التاسع عشر وسخائمه؟ يوم كانت الآلة الواحدة يديرها عشرون عاملاً، واليوم في عصر التقنية المتقدمة والكومبيوتر يدير مهندس واحد عشرين آلة.. ناهيك عن التغيّر الذي شهدته طبيعة العلاقة بين العامل ورب العمل في معظم الدول.. والتطور الذي شهدته الطبقة العمالية، بتحولها بمرور الوقت، إلى فئة وظيفية فنية لا تكاد تكون لها أية علاقة بسابقتها في القرن الماضي؟!.

إن الأديان والاشتراكيات على السواء.. جاءت لإنصاف المظلومين من الظالمين.. فلماذا تكون الأولى أفيوناً.. وتكون الثانية انطلاقاً وتحرراً؟!

وهنا بصدد تعميمية الماركسية حكمها على الدين انطلاقاً من تحريفات الماركسية، لا يسع المرء إلا أن يتوقف عن الحوار..

إذ لا حوار ممكناً مع إنكار البداهات!!.

نوح عليه السلام.. وبداهات الوراثة

وهاكم واحدة من نماذج سوء الفهم في التعامل مع معطيات القرآن الكريم.. سوء الفهم الناتج عن ضيق الأفق، وعدم القدرة على الاستشراف، وانعدام الرؤية الشمولية.. ناهيك عن ترسبات العواطف الجانحة والقلق الفكري.. وهي ـ جميعاً ـ تقف كالجدران أمام فهم القرآن وتمثّل عطائه المعجز الكريم..

قال لي أحدهم يوماً، وملامح الحيرة، وشيء من الامتعاض!! يرتسمان على وجهه: ولكن هذه: وراح يتلو دعاء نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1].. هذه الآية تمثل تناقضاً صريحاً مع مقررات العلم، وبداهات الوراثة.. لا بل إنها تمثل تناقضاً صريحاً مع معطيات القرآن نفسه.. فهل من المحتوم ألّا يلد الكافر إلّا فاجراً؟ وهل من المنطق أن يتحمل الأبناء وزر الآباء، بينما يؤكد القرآن في أكثر من مكان أن الإنسان يحمل مسؤوليته، ولن يؤخذ بجريرة أحد؟! فهو يقول: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[2]، ويقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[3]، ويقول: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ

(١) سورة نوح، الآيتان: ٢٦-٢٧.

(٢) سورة الطور، آية: ٢١.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٦٤.

إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[١]، ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾[٢]، ويقول: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾[٣] إلى آخره. فكيف به ها هنا يحمّل الأبناء وزر الآباء، ويدفع نوحاً إلى الدعاء باستئصال شأفةِ الآباء كي لا تتسع قاعدة الكفر في العالم؟.

تركته يتحدث على حريته.. فلما انتهى من كلامه.. وهدأت انفعاليته، وخفّ تشنجه الذي لم أجد له أي مبرر؛ قلت له: إنك يا هذا لم تفهم الآية المذكورة، ولم تتعامل معها بما يليق بك كمثقف واسع الاطلاع..

عاد إليه تشنجه مرة أخرى وأراد أن يتكلم، فأسكته قائلاً: لقد أعطيتك مجالاً واسعاً للحديث فدعني أتم حديثي أنا الآخر.. إن نوحاً عليه السلام يدعو ها هنا من موقع الغضب والانفعال على قوم دعاهم للايمان تسعمئة وخمسين سنة، فلم يستجيبوا.. ومن ثم جاء ردّ الفعل عنيفاً قاسياً.. وأنت تعلم أن لكل فعل رد فعل يساويه في القوة، ويخالفه في الاتجاه.. وتصور كيف يكون غضب تسعمئة وخمسين سنة من دعوة أناس كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم كيلا يتسرب إلى عقولهم قبس من نور الكلمة التي جاء بها هذا النبي الدؤوب..

إنه دعاء من موقع الغضب.. والقرآن لا يفعل أكثر من أن يخبرنا عما جرى حينها.. دون أن يبين ولو تلميحاً، خطأ أو صواب هذا الدعاء.. لأن هذه مسألة أخرى، ما دام أن القرآن في هذه السورة بصدد عرض تاريخي مكثف لنبوة نوح.. والإخبار شيء، واتخاذ موقف إزاء الحدث التاريخي، أو الرأي، شيء آخر..

---

(١) سورة النجم، آية: ٣٩.
(٢) سورة البقرة، آية: ١٣٤.
(٣) سورة الإسراء، آية: ١٣.

هذه واحدة.. ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحدّ.. فلو أننا وسَّعنا أفق نظرتنا إلى المعطيات القرآنية، وانتقلنا إلى سورة أخرى لمتابعة مواقف نوح عليه السلام، لوقعنا على آية أخرى تكمل الصورة، وتجلو أي غبش قد يساور الذهن أو الوجدان.. نوح وهو يدعو الله أن ينجي ابنه المارق من الفيضان المعروف: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[١].. فها هو نوح يدعو مرة أخرى من موقع العاطفة الأبوية، المعاكس تماماً لدعائه الأول، أن يعينه الله وألّا يجعل ابنه من الهالكين!!.

موقع العاطفة مرة أخرى.. ولكن مقتضيات النبوة وأخلاقياتها شيء آخر تماماً.. صارم كالأرقام.. أن يتجرد النبي عن كل ميل أو هوى.. وأن ينطلق إلى هدفه على خط مستقيم.. ومن ثم يجيبه الله سبحانه بكلماته القاطعة: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٢].

ويتبدى العطاء القرآني بتكامله المتألق الفريد.. إن نوحاً في الحالتين يدعو من موقع الانفعال، و القرآن الكريم يحدثنا بأمانة عن هذا الدعاء.. على سبيل الإخبار.. ولكنه في المرة الثانية يكشف عن الجانب الآخر من الحدث.. وهو حكم القرآن في الموقف.. إنه الرفض القاطع.. فليس في معيار الإيمان علاقة ما بين الآباء والأبناء.. يختار الأب طريق الإيمان ويصرّ الابن على المضيّ في طريق العصيان.. وهنالك (يجب).. نعم (يجب) أن يستلّ الأب من نسيج وجدانه أية محبة أو تعاطف مع ابنه المارق، لأن في ذلك انحيازاً عن الحق إلى الهوى والضلال.. فالإيمان

(١) سورة هود، آية: ٤٥.
(٢) سورة هود، آية: ٤٦.

الجاد هو البديل عن كل العواطف والانفعالات، والوشائج والصلات.. وإنه حقاً قادر على ملء الفراغ، بل إنه ليطفح، أحياناً بمحبة من نوع آخر ينوء بها كاهل المؤمنين!!.

قلت لصاحبي ذاك: وإننا لنلمح في الردّ القرآني على دعوة نوح، وفي الموقف عموماً، شيئاً آخر غاب عن ذهنك وأنت تقرر التعارض الموهوم بين بداهات العلم والوراثة، وبين معطيات القرآن، إنه ليس ثمة على الإطلاق أبناء يجدون أنفسهم مسوقين بقدر لا حيلة لهم في دفعه إلى السير على خُطا الآباء.. أن يكون الآباء كفاراً فليس ثمة حتمية تجعل من أبنائهم كفاراً.. أن يكونوا مؤمنين فليس ثمة من يرغم أبناءهم على الإيمان..

فها هو نوح النبي الذي عايش تجربة الإيمان مئات السنين.. يبتلى بابن عاصٍ.. يصرّ حتى النهاية.. حتى وهو يرى بأم عينيه المصير الرهيب.. على المضي في طريق العصيان.. وما أكثر الكفار الذين التقينا بهم في عهد الصراع القاسي في مكة.. ينجبون أبناء يختارون طريق الدعوة الجديدة.. ويستمعون للنداء.. ونظرة سريعة إلى قوائم المجاهدين والشهداء في معارك الإسلام الأولى في عهد الرسول ﷺ ترينا ـ أيضاً ـ كيف قاتل الأبناء آباءهم، ولم تثنهم عن أهدافهم أيما عاطفة قد تنحرف بهم عن الطريق..

ترى.. ـ قلت له في ختام حديثي ـ كم من الأخطاء قاد إليها سوء الفهم وضيق الأفق.. وعدم القدرة على الاستشراف.. في الحكم على معطيات القرآن؟.

الدولة..
تلك الطبقة الجديدة

من المسلّم به أن الشيوعية حركة ضد القهر الاجتماعي، وأحياناً ضد كل أشكال (السلطة)، التي تمارس هذا القهر لخدمة هذه الجماعة أو الطبقة، أو تلك.. حتى كان من الطبيعي أن يتمخض التطرف في موقف بعض الشيوعيين عن (فوضوية) ترفض الدولة كمؤسسة فوقية..

ولكن الذي حدث هو الانتهاء إلى موقف معاكس تماماً: تعبّد الدولة التي اعتمدت كل أساليب القهر المادي، والمعنوي، والسياسي، والاجتماعي، والفكري، لتحقيق سيطرتها الوثنية على العقول والقلوب والأجساد..

الدولة لا الطبقة هي التي تمارس السلطة الحقيقية في التجربة الشيوعية.. والعمال والفلاحون ليسوا سوى أدوات طيعة للإنتاج فحسب.. لبناء القاعدة المادية.. للدولة.. وتوفير دخل قومي لها يمكنها من البقاء والاستمرار..

والذين ذهبوا إلى هناك شاهدوا بأم أعينهم ما يعانيه العمال أنفسهم على يد الدولة من قهر، وتجويع، واستعباد.. لا يكاد يختلف بشيء عما كانوا يعانونه هناك في العهد الرأسمالي.. وإذا كانوا في ظل الرأسمالية يتمتعون بقدر من الحرية تتيح لهم أن يتجمعوا في نقابات ترمي بثقلها في مجرى الصراع ضد الابتزاز الرأسمالي فتُضْرِب، وتقاطع، وتصوّت، وتنتخب،

وتبعث بممثليها إلى مقاعد البرلمان، أو الوزارة.. فإنها في التجربة الشيوعية لا تتمتع بأي قدر من هذه الحرية، على ضآلة هذه الحرية الممنوحة لها من قبل النظم الرأسمالية، وعلى قلة حيلتها في إنصاف المظلومين من الظالمين.

والرواية التي يتناقلها الناس، من بين عشرات، معروفة: أضرب يوماً عمال أحد المصانع الروسية مطالبين بحقوقهم، فما كان من السلطة إلّا أن سيّرت عليهم مصفحاتها فسوّتهم ومصنعهم الذي اعتصموا فيه.. بالتراب..

ليست الحرية ممنوحة لهم في التجربة الشيوعية. إذ ما دامت التجربة قامت لصالحهم أساساً، فعلام يعيدون تنظيم أنفسهم للمطالبة بحقوقهم؟ وضد من يعلنون إضرابهم؟.

وهكذا تمرّر اللعبة، والذي يجني الثمار ليس العمال أو الفلاحون، لكنهم موظفو الدولة ومن يتملقهم ويتمسح بهم..

وإذا كان لابدّ من اعتماد المفهوم الطبقي في التحليل.. فإن ثمة طبقة جديدة متمثلة بالدولة، هي التي حلّت محل الطبقات القديمة، وزادت عليها قسوة وجبروتاً وطغياناً.. لاسيما إذا ما تربّع على قمّتها، لأسباب تاريخية حقيقية أو مفتعلة، حفنة من المستبدين..

ونفتّش في وظائف الدولة الخطيرة ومناصبها الكبرى عن العمال الحاكمين.. في التجربة التي يقال: إنها جاءت من أجلهم.. بهم ولهم.. فلا نجد إلا قلة قليلة منهم.. والأكثرية جاؤوا من أصول وفئات شتى.. لم يمارسوا العمل في المصانع يوماً.. ولا ذاقوا ويلاته أو اكتووا بجمراته..

إن هنالك فرضية ماركسية خاطئة ترى أن بمقدور الطبقة العاملة أن تصنع الدولة، وأن تقودها في الوقت نفسه.. وإذا كانت أية دولة، مهما كانت

عقيدتها، في حاجة إلى خبرات شتى لتسيير شؤونها.. خبرات لا يقدر عليها أو يوفرها العمال وحدهم.. فإن الذي سيحدث أن تنفتح مناصب الدولة وأجهزتها وكوادرها على كافة الخبرات والفئات.. من أجل نجاح التجربة نفسها..

ومن هذا التناقض في المقولة الماركسية يتراجع العمال ثانية إلى الخلف..

قد يصنعون (الدولة).. نعم.. ولكنهم لن يقودوها بحال..




الدين:
صراع من أجل التحضر

إذا ما مارسنا التحليل بصورة معكوسة، وبدأنا من الحضارة المعاصرة.. بالأحرى.. المدنية المادية المعاصرة، بتفوقها المذهل، وقدرتها الهائلة على الاكتشاف والتنفيذ، لقلنا بأن الدين لم يلعب ذلك الدور المبالغ فيه في صيرورة التحضّر البشري..

فها هي ذي المدنية الغربية ترفض الله، وتتجرَّد عن الدين، وتلغي الروح من الحساب، ثم إذا بها تقفز هذه القفزات العملاقة، فتضع إحدى قدميها على الأرض والأخرى على القمر.

وبقليل من التمعن يبدو خطأ حكم كهذا.. بل خطله.. ذلك أنه ينطلق من منهج معكوس، فيصل بالضرورة إلى نتائج معكوسة..

والأحرى أن ينصب التحليل على البدايات الأولى للتكون الحضاري.. ثم ينطلق مع صيرورتها الزمنية على خط صاعد.. صوب القمة.. وحينذاك، ومن خلال فحص واستقراء العشرات من الحضارات البشرية، يتبين له أن الدين هو، في معنى من المعاني المتدفقة التي يعجّ بها تياره المزدحم، صراع من أجل التحضّر..

والجهود التي بذلها الأنبياء عليهم السلام، لإخراج أممهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الحضارة، جهود كبيرة اقتضت منهم عزماً يفلُّ الحديد.. ومن ثم وصفهم القرآن الكريم بأنهم: ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾، ولولا ذاك ما قدروا

على تحمل ضغوط الجاهلية، والانحطاط، والشد، والتخلف، والنزعات الحيوانية الهابطة، والارتكاز المادي، والشهوات السافلة.. ما قدروا على تحديها والصبر إزاءها، والانتصار عليها في نهاية الأمر..

إن خروج الجماعات البشرية من مستنقعات الجاهلية إلى أرض الإيمان، النظيفة، المضيئة، المتوحدة.. اقتضى صراعاً مميتاً، وانتهى إلى انتصار للحضارة والقيم الحضارية في مفهومها الشامل الذي لا يقف عند حدود تفوق مادي محدود، بل يتجاوزه إلى آفاق الفكر والروح والعقيدة والمطامح الإنسانية..

إن آدم عليه السلام ما جاء إلى العالم إلّا بعد أن تعلم الأسماء كلها.. وبنو آدم بعثوا إلى العالم لكي يكونوا مستخلفين في إعماره وتحضيره: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾(١).

ومن خلال هذين الخطين العريضين، في صميم العقيدة الدينية التي تشكلت سماتها النهائية في الإسلام، يبدو واضحاً، ذلك الارتباط الصميم بين الدين والتحضر.. ويبدو كذلك حجم الدور الذي لعبه الدين في صيرورة الحضارات..

وما أكثر علماء الاجتماع وفلاسفة التاريخ الذين أكَّدوا هذه الحقيقة ووجدوا أنفسهم أمام ثقلها الذي لا مفر من الاعتراف به..

ثم إنه حتى المدنية المعاصرة، في واجهتها المادية المتألقة التي تغطي على مأساة روحها الخربة، وظلمة باطنها المتأزم، المعذب.. حتى هذه، كان للدين، عبر صراعه التاريخي الطويل، دور كبير في تحققها..

أليست المدنية هي تراكم خبرات زمنية، وثمرة لجهود أجيال تلو

(١) سورة هود، آية: ٦١.

أجيال.. قدّم كل منها بعضاً من طاقته.. شيئاً من العرق والدماء والدموع لتحقيق هذا الكشف، وتنفيذ تلك المهمة؟.. فتجمعت روافد الإبداع، وتزايد عطاؤها، يوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة، وقرناً بعد قرن.. لكي ما تلبث أن تصب في بحر مدنية القرن العشرين التي يبهر وهجها الأبصار؟.

أيغفل أحد والغربيون يعترفون ويشهدون، دور الإسلام والحضارة الإسلامية في إغناء مدنية العالم كشوفاً علمية، وتطبيقات تقنية، ومناهج بحث وتجريب؟.

إنه ليس لأحد الحق في أن يدّعي احتكار الخبرة لنفسه، فالخبرة أمر مشاع تتحقق به وتبنى عليه أمم الأرض كلها، وحضارات العالم كله.. لكن ما ليس للدين علاقة به ـ حقّاً ـ هو ما يعانيه الغرب الآن، والعالم كله من ورائه، من تأزم، وتمزق، وعذاب..

يوم يتاح للدين الحق، أن يلعب دوره حقّاً في مسرح الحياة، فإنه سيعرف كيف يداوي الأزمة، ويقضي على التمزق، ويمسح على العذاب..

ويبقى الدين.. في الأمس واليوم وغداً.. صراعاً من أجل التحضر، ما دام أن التحضُّر لا يعني التراكم الكمي للأشياء فحسب.. بل صياغة حياة نظيفة، متوحدة، سعيدة.. يكون فيها للإنسان مكان.

المنفيون من ساحة العلم

﴿عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِۚ﴾[١].

وما أكثر الحقائق التي تبدو لحواسنا وعقولنا بظواهرها.. أما البواطن فهي مغيبة.. ولكنها ـ مع ذلك ـ جزء من الحقيقة لا تنفصل عنها..

إن الغيب والشهادة أشبه ـ إذا صحَّتِ الاستعارة ـ بعملة ذات وجهين ليس بمقدور أحد أن يفصل أحدهما عن الآخر، وإلّا فقدت العملة شكلها وقيمتها.. والفرق.. أن العملة يرى وجهاها، أما الحقيقة فقد يُرى وجهها الآخر وقد لا يُرى.. ومع ذلك فهو (وجود) حقيقي لا يقل ثقلاً عن الوجه المنظور.. إن لم يَفُقْه بكثير.. إن الغيب أشبه بالبطانة غير المرئية للشهادة، أشبه ببعدها العمقيّ الذي يغور بعيداً عن إحاطة الحواس..

ما من شهادة مجردة.. إنها بشكل أو آخر تجسيد لحقيقة مغيبة.. وإن التشبث بالشهادة وحدها، والقول بأنها الحقيقة الوحيدة لا يعدو أن يكون نوعاً من العلم المبتور.. نوعاً من الأمية بحقائق الأشياء.. ولقد حكم القرآن بالعمى والضلال على أولئك الجاهليين الماديين، الذين اتهموا الدعوة الجديدة باعتماد السحر؛ لأنها جاءت بما لم تألفه معطياتهم الحسيّة، الناقصة، الرتيبة.. فقال: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَـٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾[٢].. ودعاهم بذلك، بل تحداهم أن يتخلوا عن أسلوب الاتهام الباطل، الرخيص، الذي

(١) سورة التغابن، آية: ١٨.
(٢) سورة الطور، آية: ١٥.

لا يقوم على الحق، إلى التبصّر بالحقائق لكي يلمّوا بأبعادها الشاملة، قبل أن يصدروا عليها حكماً، أسوة بما يفعله الماديون المعاصرون ومقلّدوهم على غير هدى، حذوك النعل بالنعل!!

فها هم بعض المثقفين منهم يتهمون كل من يؤمن بالوجه الآخر للحقيقة، ويعلن إقراره للغيب، باللا علمية.. وفي إحدى المحاضرات عن فلسفة (أرنولد توينبي) الحضارية اتهم الرجل من قبل أحد الأساتذة المتخصصين: باللاعقلانية؛ لأنه حلّق بفلسفته في السموات، وتحدّث عن أمور غيبية لا تمسك بها الحواس.

تُرى.. إذا حدث وأن تغزّل إنسان بضوء الشمس ونادى أشعتها البيضاء قائلاً: يا من تضمين جوانحك على الأحمر والأخضر والأرجواني!! أتُخرجه مقولته تلك عن حدود العقل؟ والتبصّر؟ لأنه يتكلم عمّا لا تراه العيون؟

أبداً.. بل بالعكس.. إنه أكثر عقلانية بالمفهوم الواسع، الذي يتجاوز به العقل، أسر الحواس، إلى ما وراءها، ويغادر دائرة المنظور القريب إلى المنظور الأبعد الذي يقرّه العلم المختبري، وتؤكده الدراسات التجريبية، رغم نأيه المباشر عن الحواس..

إن الحديث عن «الحقيقة» ليس أمراً بسيطاً سهلاً.. كما أنه ليس حكراً على الذين أسرتهم ظواهر الأشياء المادية، فحرنوا عندها ورفضوا تجاوزها إلى الأعماق.. والذين يقفون دائماً هناك، هم عدد من الفلاسفة الظنيين، الذين لم يحلّوا معادلة رياضية واحدة، ولم يدخلوا مختبراً..

أما العلماء الذين عاشوا في المختبر، واستخدموا لغة الرياضيات، لفك الطلاسم والرموز، فإنهم على النقيض، اخترقوا قشرة الظواهر والأشياء إلى بطانتها.. وتوغلوا إلى العمق.. وحدّثونا، وهم يحاولون هناك، عن تهافت

المادية، وتفتت الصلابة، وخداع الحواس.. وتكلموا عن الطاقة والحركة، وتجاوزوا ذلك، وقالوا بما يشبه التواجد الواعي في قلب الذرة، وبالغيب الذي يصعب حصره والتعامل النهائي معه.. معترفين بذلك، بأن الإحاطة التامة بالجانب الآخر للحقائق.. الجانب المغيّب.. ليس في طاقة إنسان..

وتبقى الحقائق تحمل دوماً وجهيها.. الشهادة والغيب.. ولهذا يقرن القرآن الكريم في أكثر من موضع هذين البعدين وهو يتحدَّث عن علم الله المحيط بكل شيء..

أما الذين اختاروا أن يقفوا عند الأعتاب، ولا يجرؤون على تجاوز القشور إلى العالم الداخلي للظواهر والأشياء.. فإنهم آثروا أن ينفوا ليس فقط من ساحة الدين.. ولكن.. من ساحة العلم أيضاً..




تناقض في التناقض الدیالكتيكي

إن القول بديالكتيكية الحركة التاريخية يطرح هذا السؤال: لماذا تحرك التاريخ حتى إذا وصل مرحلة (الشيوعية)، كفّ عن التقلّب والبحث عن صيغ جديدة؟ لماذا تحرك التاريخ متجاوزاً الشيوعية الأولى... ولا يتحرك ليتجاوز الشيوعية الثانية باتجاه دورة أخرى من الصراع الطبقي، تغطي ألفين أو ثلاثة آلاف سنة أخرى من التاريخ؟ ألا يمثل هذا تناقضاً منهجياً بين القول بحتمية التناقض الجدلي عبر التاريخ، وبين القول بزوال هذا التناقض في مراحله النهائية؟! وإذا كانت هذه المراحل تتضمن الأكمل والأحسن، بما يوحي بأن حركة التاريخ تنحو دائماً صوب الاكتمال؛ فلماذا إذاً تبدلت الاشتراكية أو المشاعية الأولى باتجاه وضع أسوأ هو مرحلة (الرق)؟

وإذا كانت مرحلة الشيوعية الثانية تمثل النضج الكامل للعالم، وأنها لن تنتكس كما انتكست الشيوعية الأولى باتجاه وضع أسوأ، فمعنى هذا أن وراء الحركة التاريخية (الديالكتيكية) عقل يسيرها ويوجهها، ويقول لها أين عليها أن تسير وأين يتوجب عليها أن تتوقف!!

أين يقع هذا العقل؟ ما هو مكانه؟ هل هو خارج التاريخ يوجهه من فوق، أم هو ضمن التاريخ نفسه؟ هل هو خارج الفعل والإرادة الإنسانية أم في إطارهما؟... ومعنى ذلك: أن الإنسان هو الذي يصنع تاريخه لا العكس... وهذا مما يناقض مقولات التفسير المادي للتاريخ.. ومعنى

هذا أيضاً أننا نرجع إلى معميات (الهيغلية)، التي قال عنها (ماركس) نفسه ورفيقه (أنجلز): (إنها تمشي على رأسها)؟ وانتقداه لأنه لم يقل لنا أين تقع روح العالم التي تسيِّر التاريخ وتوجهه صوب الأحسن والأكمل..

وإذا لم نقل بعقلانية التاريخ.. فإن السؤال سيظل معلقاً: كيف يعمل الديالكتيك لصالح الإنسان وحركته التاريخية؟

تساؤلات كثيرة يطرحها المنهج الديالكتيكي.. ولو أن صاحبه أبقاها في نطاق المحاولات الجادة من أجل التوصل للحقيقة.. لو أنه طرحها على أنها مجرد خطوات تخمينية لفهم حركة التاريخ البشري، لكسبت أهميتها واحترامها.. ولكن الذي حدث هو العكس من هذا تماماً: الادّعاء بأنها الصواب المطلق، والعلم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وأن أية محاولة لنقدها أو التشكيك بها، إنما هي خروج على العلم وقواعده وأصوله..

وبمتابعة المادية بعد تطبيقها تاريخياً تتكشف لنا ثغرات أخرى في صميم المنهج الديالكتيكي ليست أقلها خطراً ـ بطبيعة الحال ـ قيام التجربة في مجتمعات زراعية أو إقطاعية متخلفة، والمنهج يؤكد قيامها في مجتمعات صناعية رأسمالية متطورة.. أو تحقق السلطة الشيوعية على أيدي الجيوش المحترفة أو بالغزو أو بالانقلاب العسكريين، وليس بنتيجة الثورة العمالية كما يؤكد المنهج.. أو تفتت وحدة المعسكر الشيوعي نتيجة الخلافات القومية، والمنهج يؤكد هذه الوحدة كقدرٍ لا مفرّ منه، ويرى في النزعات القومية مجرد انعكاسات بورجوازية بائدة.. أو توجّه قيادات المعسكر الرأسمالي إلى الالتئام، والتوحد السياسي والاقتصادي، والمنهج يتنبأ بمزيد من التمزق والتطاحن والصراع مما سيشهده هذا المعسكر، حتى يأذن بسقوطه..

كثيرة هي الثغرات في المنهج الديالكتيكي نظرية وتطبيقاً.. وكثيرة أيضاً هي التساؤلات المعلقة.. ولم يكن ثمة من بأس لو أن صانعي هذا المنهج، أو مكتشفيه، كما يحبون أن يسمون، قالوا عنه: إنه مجرد محاولة.. وليس علماً يقينياً مطلقاً..

بين الانتماء..
وصناعة الأشياء

ينتصر الغرب بتفوقه في صناعة (الأشياء)، وفي طرائق التعامل معها، أما الشرق فقد جرَّب أن ينتصر أكثر من مرة بتفوقه بالانتماء إلى المبادئ وفي طرائق التعامل معها.. وقد انتصر فعلاً..

ليس ثمة تقسيم محتوم لجغرافية العالم إلى أصقاع وأقاليم بعضها يبدع الأشياء، وبعضها الآخر يبدع القيم.. فكم طلع الغرب علينا بقيم ومذاهب لسنا في مجال تقييمها والحكم على ما فيها من خطأ أو صواب.. وكم طلع الشرق على العالم بأشياء وكشوفات مادية أضافت إلى رصيد المدنية البشرية الكثير الكثير..

نعم ليس ثمة تقسيم محتوم.. ولكن استقراء التاريخ يمنحنا مؤشرات شاملة، وخطوطاً عريضة تصبغ المساحة الأكبر من هذا الجانب أو ذاك.. وإحدى هذه الخطوط هي أن الغرب الحديث إذا كان قد تفوق في صناعة الأشياء، فإن الشرق لا يزال يملك القدرة على بعث المبادئ، والتفوق في الانتماء إليها والتوحّد معها.

والأمم التي لا تتعلم من تجربة التاريخ، فممّ تتعلم؟ إنه إذ يتوجب علينا اليوم أن نلاحق الغرب في صناعة الأشياء كتحدٍّ لا مفر من مجابهته إذا أردنا أن نحقق وجودنا في هذا العالم، وأن نتجاوز وصاية الغرب الحضارية، فإن ممّا يتوجب علينا أكثر هو أن نعرف بوضوح كامل أنه ليس

بالأشياء سنوازي المسيرة الغربية ونسبقها. . لأن الفارق الزمني في سباق (المدنيات) حاجز صعب الاجتياز. . أما في سباق (الحضارات)، حيث تلعب الروح والقيم والأفكار، والمطامح الإنسانية، والعقائد، دوراً كبيراً، فإن الأمر ليس مستحيلاً. . ولقد تحقق أكثر من مرة. .

لكأن الغرب نفسه، وهو يتضور ألماً، وينزف من شروخه الغائرة دماً كثيراً. . يشير إلينا، بل يتوسَّل بنا، أن نشمّر عن ساعد الجد لا لكي نصنع ثلاجة أو سيارة، ولكن لكي نبعث قيمة، ونرسم مبدأ، ونطلع على العالم بعقيدة. . فها هنا تكمن قدرتنا الذاتية على التميز والتفوق. . والتأثير. . ها هنا تكمن خصوصيتنا. . وريادتنا. .

هذا على المستوى العام. . أما على مستوى تجربتنا الإسلامية بالذات. . على مستوى عقيدتنا الفذة التي تمد مطامح الإنسان الروحية إلى الآفاق البعيدة، وتبعث في نفسه توتراً إيجابياً مشحوناً يتحدى الزمان والمكان، ويلوي عنق التاريخ. . على مستوى ديننا الذي يمنح البشرية رؤية للكون والعالم والمصير، ما شهدت البشرية رؤية أشد منها وضوحاً. .

وعمقاً. . وتوازناً. . وتناغماً. . وانسجاماً مع معطيات الفطرة. . وإقناعاً. .

على هذا المستوى يبدو الأمر ضرورة حتمية ليس للشرق المتخلف فحسب. . بل للعالم كله. . ولكن أنى لنا أن نرى المحتوم، ونتعانق معه، قبل أن ينزل بنا وبالعالم من الوقائع والكوارث ما هو أشد وأنكى؟

ولن ننسى هنا. . أن هذه العقيدة التي تقدم هذا العطاء الكبير على مستوى الفكر والروح، لا تغفل، لحظة، أهمية التفوق المادي، وثقله، وأثره الحاسم في التاريخ. . إنها تفتح صدرها لكل إنجاز مادي، ما دام أن

هذا الإنجاز مسألة (حيادية) لا تميل إلى الهدم أو البناء إلا أن توجهها إلى أحدهما يد آمنت بهذه الفكرة أو العقيدة.. أو تلك..

ومرة أخرى.. وعلى ضوء قدرة الإسلام على احتضان وحماية منجزات المدنية المادية الضخمة.. جنباً إلى جنب مع قدرته على بعث البشرية إلى عالم جديد تتجاوز به محنها ومصائبها..

مرة أخرى.. يبدو الأمر ضرورة حتمية لامحيص عنها.. للخلاص..

إنها الطريق الوحيد.. فهل سيتاح لنا وللبشرية أن تسير فيه.. بله أن تراه؟




ليس بالأشياء تحيا المجتمعات

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾[١].

إنه ما من عصر كالقرن العشرين هذا يمكن أن يجسِّد أمام وعينا أبعاد هذه الآية القرآنية الموجزة.. إنه حقاً قرن الأثاث.. والري.. قرن التكاثر الشيئي والتسابق في المقتنيات والتطاول في البنيان.. القرن الذي غدا فيه (الإعلان) عن الأشياء علماً له أصوله ومناهجه.. وغدت أحاديث الناس في المجتمعات اليومية تنصبّ في معظمها على التزوُّد بالحاجيات المستجدة، وملاحقتها، واصطيادها والتباهي بتكديسها في غرف البيوت وصالاتها، حتى لو لم تكن وراءها أيما منفعة.. القرن الذي أصبح الناس فيه ينفقون نصف دخلهم على المظاهر المادية، التي يعتقدون أنها تمنحهم وجاهة أكثر، وتشبع في أنفسهم حاجات أعمق.. المظاهر في ملابسهم، والمظاهر في مراكبهم، والمظاهر في واجهات دورهم وعماراتهم.. حتى لقد غدا (الديكور) هو الآخر علماً له أصوله ومناهجه.. يتهافت الناس على أصحابه من أجل أن يبدو أحسن أثاثاً ورياً!!

إن التقدم التكنولوجي.. بل النمو الذي تشهده (المدنية) عموماً، أي: الجانب المادي من الحياة، ليس سوى تراكم شيئي.. تكديس أثاث بعضه فوق بعض، بتعبير القرآن، ولم يكن بمقدور (الأثاث) يوماً، مهما كان نظيفاً

---

(١) سورة مريم، آية: ٧٤.

لامعاً جميلاً متقدماً متقناً.. أن يقف بمواجهة المصير.. أن يخلص أمة لم تحسن التعامل مع القيم، التي هي أكبر من الأشياء والأثاث والديكورات، يخلصها من مصائرها المفجعة.. من الهلاك النفسي، والأخلاقي، والصحي، والاجتماعي، والأدبي، الذي يقتحم عليها جدرانها الشيئية، ويكتسحها وأثاثها، ورواءها الخارجي من مسرح التاريخ.

وبصيغة أخرى يحدثنا القرآن عن هذه المأساة، كما اعتاد أن يحدثنا عن كل قضية خطيرة من أكثر من زاوية.. فيطرح هذا النذير: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾[1].

فها هنا أيضاً نلتقي، بصيغة عكسية، بين استكمال الزينة الخارجية.. زينة الأثاث والأشياء والديكورات.. وبين الدمار الحضاري الشامل الذي يصيب أمة ما انصرفت بكليتها إلى القشور، ولم تحسن، بل لم تعرف كيف تتعامل مع الجواهر والأصول..

ولم تكن الحضارة في يوم ما مجرَّد تراكم في الأثاث، وتكاثر بالأشياء والأموال.. إنه بدون معامل القيم، وشدّها ومؤشراتها، فلن يكون بمقدور هذا الحشد المفكك من المقتنيات أن يصنع شيئاً..

من أجل ذلك يطلق كبار المفكرين والفنانين المعاصرين نذرهم ضد هذا التكاثر المخيف الذي تختنق معه الرؤية الإنسانية، ويضيع بين أكداسه الإنسان.. إنه يتزايد وفق توالٍ هندسي؛ فالقطعة الواحدة تغدو قطعتين، والاثنتان تغدوان أربعة.. وهكذا.. تزداد عزلة الإنسان يوماً بعد يوم..

---

(١) سورة يونس، آية: ٢٤.

ويزداد حصاره.. ولن يكون الحصاد سائغ الشراب.. وصدق الله العظيم: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1].




(١) سورة التكاثر، الآيات: ١-٨.

الرياضيات الدامية

كنا نستقل سيارة في موكب تشييع لأحد الأساتذة، توفي بسكتة قلبية وهو في عز الشباب، وقال أستاذ للفلسفة واللاهوت في الكلية نفسها،يلبس ملابس الرهبان: ها هنا يتذكر الإنسان ما قاله الفلاسفة الوجوديون عن الموت.. هيدجر، وكيركغارد، وغابرييل وغيرهم.. أنه ما من شيء يلوي عنق الوجود ويخنقه.. كالموت.. ما من شيء غير مبرر على الإطلاق كالموت.. يجيء هكذا على حين غفلة.. يضرب ضربته المفجعة ويغيب عن العيان..

بعد حوار قصير.. تذكرت، عبر دقائق الصمت المشحونة، التي أعقبته، والجسد الشاب يوسّد الحفرة الضيقة.. تذكرت مقولة كامي عن الموت:إنه الرياضيات الدامية، وإنه ما من شيء مبرر إزاء واقعة الموت.. وإنه ما من معنى للحياة والموت واقف لنا بالمرصاد..

رؤية سوداوية للحياة.. أليس كذلك؟ وإذا كانت حياة أي واحد منا تنتهي بضربة كهذه.. فهي المعادلة المفجعة التي تسحّ دماً..

والموقف الإيماني يتألّق أكثر ما يتألق في مواقف كهذه.. ولذا أمرنا الرسول ﷺ بزيارة القبور، وتشييع الموتى.. هنالك حيث تتمزق الأقنعة، وتتساقط البهارج، وتتعرى الحقيقة.. ناصعة بيضاء.. بلون الأكفان التي تلف الأجساد، وهي تودع الدنيا..

وتذكرت.. في الدين.. يتحول الموت إلى شيء آخر تماماً.. شيء مبرر ومنطقي ومرسوم.. شيء في محله تماماً.. ضروري كضرورة الحياة نفسها.. حتمي كحتمية الكهولة والشيخوخة بعد الطفولة والصبا والشباب.. موقف (علمي) إذا صح التعبير، ما دام أن منحنى الحياة الإنسانية يقتضي، في مرحلة المغيب، هذا الانحدار السريع، الفجائي نحو الظلام..

في الدين يتحوَّل الموت إلى رياضيات عادلة بمعنى الكلمة.. سواء وضعناه في معادلة من الدرجة الأولى أم من الدرجة الرابعة.. فالنتيجة محسوبة بمنطق رياضي صارم لا يخطئ ولا يضل!!

ماذا لو بقي الإنسان حياً لا يموت؟ مجرد فرض مناقض لمقولات علم الحياة.. أيوجد في تاريخ بني آدم موقف (لا أخلاقي)، ناهيك عن لا علميته، يوازي هذا الموقف في شناعته؟ أن يظل الإنسان حيّاً لا يموت؟ بمجرد أن نتذكر صفاً من الطغاة الذين ظلّوا إلى آخر لحظة من حياتهم، يجلدون المغلوبين والمستضعفين، ويحصدونهم وهم يعرفون أن الموت ينتظرهم هناك على بعد خطوات؟ ماذا لو تأكد أي واحد من هؤلاء الطواغيت أنه باقٍ لا يموت، حي خالد لا تسري عليه قوانين الفناء؟

شيء مرعب حقّاً ترتعد له الفرائص.. أن يظل الطواغيت خالدين.. وأن يظل بنو آدم دونهم محنيي الظهور.. عراة.. يجلدون.. ويحصدون..

وبمجرد أن نتذكر ـ في مقابل هذا ـ حشوداً من المضطهدين، المطاردين، الذين ظلوا يجلدون حتى آخر لحظة فلم ينقذهم إلّا الموت.. نتذكرهم، هكذا، يتلقون السياط إلى أبد الآبدين.. دون أن تتاح لهم فرصة الرد والانتقام بسبب من طبيعة المرحلة التاريخية التي وضعتهم هنا ووضعت الطواغيت هناك..

وبمجرد أن نتذكر كيف أن مئات، بل ألوفاً وملايين، من المظلومين والمستضعفين، ضاعت حقوقهم، ولم ينالوا على ما قدمت أيديهم أي جزاء.. ولو طال بهم السرى لازدادوا مسغبة وضياعاً.. بينما يقف في المقابل مئات وألوف من الظالمين والمستعبدين والمتخمين.. كانوا لولا واقعة الموت سيزدادون تخمة وظلماً واستعباداً.. وليس ثمة من يأخذ من هؤلاء لهؤلاء، ومن ينصف هؤلاء من أولئك.. قد تقع ثورة وثورتان وثلاث.. وقد ينتصر المستعبدون هنا وهناك وهنالك.. وقد تسود قيم الحق في هذا الموقع أو ذاك.. ولكن رغم هذا كله، فستظل أعداد هائلة من الذين لم ترد إليهم حقوقهم بعيدة عن قبضة الحق ونظراته.. غير قادرة على استرداد حقها.. بل إن ظلماً جديداً وأفواجاً مستحدثة من المظلومين تبرز إلى حيز الوجود في صميم الثورات نفسها.. فتضيع.

وتجيء واقعة الموت لكي ترد الطرفين إلى مولاهم الحق، الذي يعرف سبحانه وتعالى كيف ينتقم للمظلومين من الظالمين، وكيف يضع الموازين القسط التي ما عرفت الحياة البشرية ـ على ادعاءاتها ـ طعمها العذب..

إن الموت هو ذلك الوسيط الذي لابد من مجيئه إذا أريد لقيم الحق والعدل أن تتحقق في صفحة الكون كله.. يجيء فيحيل كافة القضايا المعلقة إلى القاضي الأكبر الذي يعرف كيف يسوي الحقوق.. وكيف يرفع رؤوس المظلومين.. وكيف يدسُّ أنوف الطواغيت في نار جهنم ورمادها..

ومن ثم نعرف كيف يكون الموت رياضيات عادلة من أية زاوية نظرنا إليه..

ولا يخطرن على بال أحد أن تحليلاً كهذا يقود إلى دعوة المظلومين لإلقاء السلاح بانتظار حكم الموت.. بل على العكس تماماً.. إن حتمية

الموت تعجل بثورتهم وتمنحهم قدرة أكبر على اجتياز المخاوف، ومجابهة الخصم الذي سيقتلهم أو يقتلونه..

وفي الحالتين سيكونون هم المنتصرين..

وعلى هذا الضوء نعرف كيف تمكن أجدادنا الفاتحون من تغيير خرائط العالم والتفوق على قوى تفوقهم بكثير، ودك عروش كانت قد استعلت على المستضعفين قروناً وقروناً..

لعبة كل يوم..

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[(١)]، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[(٢)]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[(٣)]..

عشرات المرات، بل مئاتها، و القرآن الكريم يدفع الإنسان دفعاً، يهزه بعنف، يأتيه من كافة الزوايا من أجل أن يُعمِل عقله فيما يحيط به.. لأنه بمجرد إعمال عقله هناك فإنه سوف يكشف النقاب عن الحقيقة.. وما جاءت الأديان إلا لكي تقود الإنسان إلى الحقيقة..

ابتداء من لحظات نزول القرآن الأولى، وإلى أن يشاء الله، ترددت وستتردد هذه النداءات القرآنية الموجهة للإنسان كي يُعمِل عقله..

وعبر مسيرة الإسلام الطويلة، استجاب للنداء من استجاب، ورفض من رفض، وبقي النداء يحمل حرارته وتدفقه في مجرى الزمن..

ومع ذلك يبرز بين الحين والحين، من أدعياء البحث والفكر، من يقول بأن الدين جاء لكي يقف بمواجهة العقل، يحاصره ويضيّق الخناق عليه، ويسدّ إزاءه منافذ العمل والانطلاق.. وأنه ـ إذا ما أردنا إطلاق العقل من عقاله لكي يعمل بحرية تامة ـ يتوجب علينا أن نزيح من طريقه عوائق الدين..

(١) سورة البقرة، آية: ٢٢١.
(٢) سورة الأعراف، آية: ١٧٦.
(٣) سورة الحديد، آية: ١٧.

أتراهم لم يقرؤوا كتاب الله ولو مرة واحدة؟! أتُراهم لم يمرّوا على صفحاته ولو مروراً سريعاً؟ وفيهم الأساتذة المتخصصون الذين يتباهون بقراءاتهم الواسعة ليل نهار؟

تُرى كم من المواقف القرآنية حكم عليها من قبل هؤلاء الأدعياء بعكس ما ذهبت إليه أو أرادت أن تقوله؟!

إنه احتقار للعقل نفسه، أن يصدر الإنسان حكمه على قضية لم يكلف نفسه عناء الاطّلاع على تفاصيلها وأبعادِها.. تماماً كما أنه احتقار للقانون أن يصدر الحاكم حكماً خطيراً في قضية لم يستدعِ فيها شاهداً واحداً..

احتقار للعقل نفسه أن يتشبث الإنسان بموقف لا تبرره الحجج والأسانيد، موقف حمله معه منذ طفولته أو صباه أو مراهقته، أو لقّنه تلقيناً.. في هذه المرحلة أو تلك.. ثم لم يحاول بعد استكمال نضجه أن يقوم بتفحص مدى صدق موقفه ذاك..

وأغلب الظن أن المسألة، بالنسبة لمتخصصين كهؤلاء، ليست مسألة حمل ولا تلقين.. ولكنها مسألة (تحميل)، أرغموا عليها، وهم يواصلون دراساتهم العليا هناك، لكي يمنحوا الشهادة ويرجعوا إلى بلادهم فيجدوا المناصب الخطيرة تستقبلهم هناك.

والدليل أنك إن حاولت أن تناقشهم، وتقدم لهم الأدلة تلو الأدلة لووا رؤوسهم، ورفضوا الاستمرار في الحوار.. خوف أن تنكشف أبعاد اللعبة، التي كلفوا بأدائها قبل أن يرجعوا إلى بلادهم..

وليس ثمة من خطر أن يرجع كل المتخصصين، وهم يحملون أسفار الخرافات الغربية، المادية أو الصليبية، عن الإسلام وعقيدته وتاريخه..

ولكن الخطر يكمن في صفوف الطلبة الجدد الذين سيجلسون تحت أيديهم يتلقون عنهم المعرفة بنظرة ملؤها التقدير والإعجاب والاحترام..

وإزاء نظرة كهذه يُطمس على الحقائق.. وتمرر الأكاذيب والخرافات..

إنها ـ للأسف ـ لعبة كل يوم!!




ليضع عنهم إصرهم والأغلال..

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

بهذا الصدق الرباني الذي علمنا إيّاه الإسلام، يحدّثنا كتاب الله على لسان رسوله عليه السلام عن مسألة يومية تتعلق بالطعام والشراب.. بلمسات واقعية، عفوية، سمحة، ترفض الدجل الديني الذي مارسته الأديان المنحرفة، أو بعبارة أخرى محرّفو الأديان وكهنتها ومرتزقتها..

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ...﴾(٢) بهذا الإطلاق السمح الذي يرفض القيود والتعقيدات والتضييق على الناس.. ويفتح أمامهم ـ بدلاً من ذلك ـ طريق الحياة السويّ عريضاً.. واسعاً.. ممتداً..

إن القاعدة هي الإطلاق.. وأما التحريم فهو مجرد استثناءات محددة، وضعت لصالح الإنسان نفسه.. وفرق بين استثناء محدد يجيء لصالح الإنسان بعلم من الله، وبين حشد من التحريمات والأغلال يريد مرتزقة الدين أن يطوقوا بها أتباعهم لكي يزيدوهم ذلة وخضوعاً.

(١) سورة الأنعام، آية: ١٤٥.
(٢) سورة الأنعام، آية: ١٤٥.

في الأديان المنحرفة، يمارس المرتزقة لعبة مكشوفة، ولكنها تدر عليهم الكثير: إنهم بتضييقهم الخناق على أتباعهم.. بتجهيلهم والإلغاز عليهم.. بتجويعهم وإفقارهم.. بإخضاعهم وإذلالهم.. بوضع القيود والأغلال في أيديهم وأرجلهم.. يضمنون عبوديتهم المطلقة، والكسب الحرام، الذي هو مردود هذه العبودية..

ولقد جاء الإسلام السمح في الوقت المناسب تماماً، جاء لكي يكسر الحلقة المفرغة، ويدمر على المرتزقة مواقعهم، ويوقف لعبتهم الغادرة، ويحرر المستعبدين من ربق الأوهام والأضاليل والخرافات، التي أذلتهم طويلاً: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾(١)..

وفي كثير من الآيات يؤكد القرآن الكريم رفضه للتحريمات المصطنعة، وإطلاقه حرية الممارسة الضرورية في أصولها المعقولة: مأكلاً وملبساً وإشباعاً جنسياً.. بما يوازي حجم الإنسان.. وحجم ضروراته.. لا إفراط ولا تفريط: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾(٢)، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾(٣)، ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾(٤)..

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.
(٢) سورة البقرة، آية: ١٧٢.
(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ٣١-٣٢.
(٤) سورة آل عمران، آية: ٩٣.

وفي كثير من الآيات يسخر القرآن الكريم بأسلوبه الذي يرسم الصور، ويجسّد المواقف، من أضاليل كهنة الدين ومرتزقته، ويكشف الهدف الحقيقي الذي يكمن وراء هذه الأضاليل: ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[١]، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٢]، ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾[٣]. ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٤]..

ولكن.. إذا كان القرآن الكريم يرفض هذا الإفراط المتمثل بأغلال المرتزقة وتحريماتهم التي ما أنزل الله بها من سلطان، وكبتهم لضرورات الإنسان وأنشطته الحيوية.. فإنه في المقابل يرفض أي تفريط يقود إلى الإسراف في التعامل مع هذه الضرورات: مأكلاً وملبساً وجنساً.. بما يتجاوز حجم مطالبها المعقولة إلى نوع من البذر والاستنزاف يقود ليس فقط إلى تدمير الإنسان المفرط، المسرف.. بل إلى تدمير المجتمع

(١) سورة الأنعام، آية: ١٤٠.
(٢) سورة الأنعام، آية: ١٣٦.
(٣) سورة الأنعام، الآيتان: ١٣٨-١٣٩.
(٤) سورة الأنعام، آية: ١٤٣.

البشري بأسره.. المجتمع الذي يسمح للتفريط بأن يكون ممارسته اليومية..

والآيات القرآنية كثيرة في هذا المجال..

وشواهد التاريخ كثيرة هي الأخرى..




المرأة.. والصخب.. والاحصاء

في مسألة تحرير المرأة نجد أنفسنا كمسلمين أمام إحدى اثنتين: الصخب أو الإحصاء.. وبما أننا في عصر العلم، فأحرى بنا أن نأخذ الثانية، لكي نقيس بها مكانة المرأة في ديننا السمح العظيم..

بما أننا في عصر العلم.. أحرى بنا أن نتجاوز الصخب، والفوضى، والصراخ، والصراع الدونكيشوتي الموهوم.. ونحن نعالج قضية المرأة..

لو رسمنا جدولاً بيانياً بالمواقف التي اتخذها الإسلام في كتابه الكريم وسنّة نبيه عليه السلام، وفقهه الواسع المتشعِّب، وبالتطبيقات التي نفذت فعلاً في واقع تاريخنا الطويل، منذ فجر الدعوة الإسلامية حتى اللحظة الراهنة، وقارنّاه بجدول بياني آخر بالمواقف التي اتخذتها هذه النظرية الوضعية أو تلك، ورسمها هذا التشريع البشري أو ذاك، أو بالتطبيقات التي شهدتها هذه التجربة في العالم أو تلك، لرأينا بأم أعيننا الفرق النوعي الشاسع بين هندسة الله وهندسة العبيد!! بين الموقع الذي اختاره الله سبحانه للمرأة في خارطة العلاقات الاجتماعية المعقدة المتشابكة، ذات الأبعاد العديدة، وبين الموقع الذي اختاره لها العبيد في هذه الخارطة.. بين المكانة التي حظيت بها المرأة في أرض الإسلام وتلك التي منيت بها في أرض الوضّاعين والكهنة..

ولو رسمنا جدولاً بيانيّاً آخر بالظروف والملابسات والمتغيرات والاجتهادات والتطبيقات التي اتخذت إزاء موقف واحد من المرأة، ولتكن قضية الزواج مثلاً، أو (الطلاق) على وجه التحديد.. وأجرينا مقارنة بين أكثر من جدول يمثل كل منها هذا الموقف في مذهب ما من المذاهب أو تجربة ما من التجارب، أو دين ما من الأديان.. السماوية أو الوضعية.. لرأينا تفوق الموقف الإسلامي، ومنطقيته وتماسكه، وانسجامه.. وعمق الأسس النفسية والاجتماعية والحضارية التي يقوم عليها..

ولو اعتمدنا جهاز الحاسبة الإلكترونية (الكومبيوتر) بتقديم مجموعة من المعلومات النمطية وفق الصيغة الأولى أو الثانية، الصيغة الأفقية، أو العمودية، لتوصلنا ـ يقيناً ـ إلى النتيجة نفسها..

كلنا نعرف ـ على سبيل المثال ـ ما حدث بالنسبة لسماح الإسلام بنظام الطلاق.. كيف بُحَّتْ أصوات، ومزقت حناجر، وشقت جيوب، ولطمت صدور، هناك في الغرب من قبل طلائع الاستعمار الفكري مبشرين ومستشرقين، وهنا في الشرق من قبل صنائع الاستعمار الفكري من كتّاب وأساتذة وصحافيين وهي تنعى على الإسلام موقفه المتعصب، المتحجر، الرجعي هذا من قضية المرأة، ومن بناء الأسرة المقدس.. ونعرف ما حدث ـ بعد ذلك ـ من تراجع الكثير من القوانين والتشريعات في الدول المتقدمة في روسية وأوروبة والأمريكيتين وإباحتها الطلاق، بعد ضغوط تاريخية واجتماعية متزايدة، ومناقشات برلمانية وإعلامية واسعة متشعبة.. ونعرف كذلك ـ على سبيل المثال ـ ما حدث في إيطالية من موافقة أكثر من ثلثي أعضاء البرلمان على الإباحة رغم المعارضة الهائلة التي بذلتها المجامع الكنسية هناك وحاضرتها الفاتيكان.. والترحيب الذي قوبل به هذا الإجراء من قبل أشد الأحزاب يسارية وتقدمية.. وحتى لو لم يحدث هذا التراجع على مستوى القوانين والتشريعات.. فإن نظرة سريعة إلى صحف القوم التي

تعكس واقع حياتهم اليومي ترينا كيف أن الطلاق كان ضرورة حتمية، وكيف أنه مورس بنسب تفوق بشكل هائل ما حدث في أرض الإسلام وتاريخه..

إن قضية المرأة ليست قضية مسطحة ذات بعد واحد، لكي ننادي بضرورة مساواتها المطلقة مع الرجل.. ومسألة الأسرة ليست مسألة مبسطة ذات وجه واحد، لكي نحكم عليها بالسجن المؤبد، بتحريم الطلاق تحريماً مطلقاً، وبفرض نظام الزوجة الأبدية الواحدة بقوة القانون..

كل قضية من قضايا المرأة أو الأسرة.. أو أي من القضايا التي تحتل فيها المرأة والأسرة موقعاً هامّاً.. ليست من البساطة بمكان لكي نعالجها كما نعالج أرقاماً رياضية بالجمع والطرح والضرب والقسمة.. أو كما نعالج مشروعاً للري بجرف التربة من هنا وتكديسها هناك.. وسد مجرى النهر من هنا وفتحه هناك...

إنها مسألة شديدة التعقيد، ذات أطراف عديدة، وطبقات يعلو بعضها بعضاً.. ترتبط إحداها بالأخرى.. وأي تغير يحدث في جانب، يؤثر ولا ريب على كافة الجوانب الأخرى.. إنها ـ إذا صح التعبير ـ ليست معادلة بسيطة ذات وجه واحد، ولكنها معادلة مركبة من الدرجة الرابعة أو الخامسة.. وإذا لم ينظر إليها المشرّع نظرة شمولية تلاحظ جيداً كافة الأطراف، وتعالج جيداً كافة الزوايا على ضوء ارتباطاتها الدقيقة المعقدة، فإنه سوف يضرّ بها، وهو يريد لها نفعاً!!.

من هنا يتفوق الموقف الإسلامي من المرأة على سائر المواقف الوضعية أو الدينية المنحرفة، كما يتفوق دائماً في كل مواقفه الأخرى من الكون والعالم والحياة والإنسان.. ذلك أنه تصميم الله الذي خلق الإنسان وهو أعلم بمن خلق.. الله الذي ينظر بعلمه الشامل المحيط إلى أبعاد كل قضية، وإلى ارتباطاتها كافة، فيجيء حكمه عدلاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..

إنه عصر العلم.. فلنجرِّبْ أدواته ووسائله في تفحص معجزة الإسلام تجاه المرأة.. بدلاً من توهّم مشاكل للمرأة بتصور الكثير من البلهاء والسذّج، أو الخبثاء والماكرين أنها من صنع الإسلام..

وبالصخب والضجيج والصراخ.. بالتوتر والغضب والانفعال.. يسعون لحلها فيمارسون بهذا خطأين ينقلبان عليهم وبالاً.. خطأ بحق ديننا العظيم، الذي لم يكن في يوم من الأيام سبباً في خلق مشكلة ما تعاني منها المرأة.. وحاشاه.. وخطأ بحقّ العلم ومناهجه التي تمنحنا الوسائل والأدوات للوصول إلى الحقيقة، فنضرب بها جانباً ونستبدلها بالصخب والضجيج والصراخ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[١].




(١) سورة المائدة، آية: ٥٠.

ليس الإنسان نحلاً أو نملاً

إذا كان الالتصاق بالأرض وتنظيمها من أجل تحقيق أكبر قدر من ضمانات الإشباع مأكلاً ومسكناً وملبساً وجنساً، هو الهدف الأوحد للحياة، فإن النمل والنحل ودود القز ستغدو ولاشك، أذكى المخلوقات لأنها تعرف بغريزتها ـ التي أودعها الله فيها ـ كيف تحقق هذه الضمانات بأكبر قدر من الجهد والتنظيم والإنجاز..

ومن منا لا يعرف قدرة هذه الحشرات الثلاث على الإنتاج، وتنظيم العمل، والبناء؟.

لكن الحياة البشرية ليست إشباعاً للضروريات فحسب.. إن هذه مسألة مفروغ منها، متفق عليها بين كافة الذين يريدون معالجة هذه الحياة بشكل واقعي جاد.. إلا أنَّ هنالك ـ أيضاً ـ أهدافاً أخرى وراء هذه الحدود الدنيا من الإشباع والتطمين للضروريات.. هنالك القيم، والمُثُل، والمبادئ، والعواطف، والوجدانيات. والأشواق.. والمطامح الدينية، والجمالية، والأخلاقية.

إن الروح البشري يحن دوماً إلى الإشباع هو الآخر.. والنفس البشرية تميل دوماً إلى تحقيق منازعها والاستجابة لدوافعها التي تتجاوز حدود الجنس والطعام والشراب..

وإذا كان التنظيم المادي الذي تتفوق فيه علينا أصغر الحشرات، لحكمة يعلمها الله!! يمثل الجانب (المدني) من الحضارات البشرية.. فإن هنالك

جانباً لا يقل أهمية وخطورة، إن لم يَفُقْه بكثير. . ذلك هو الجانب (الثقافي) من الحضارات بكل ما يتضمنه من قيم، ومبادئ، ومنازع تتجاوز نطاق التعامل المباشر مع التراب. .

وهذا الجانب هو الذي يمنح الحضارات لونها، وشكلها، ويهبها شخصيتها المستقلة. . وبذا يتنوع التاريخ البشري. . ويتألق بالتغاير والاحتكاك. .

ماذا لو جَعَلت الحضارات البشرية همَّها الأول والأخير إنتاج مقادير أكبر من الطعام، وبناء مجمعات سكنية أكثر، ونسج مساحات أوسع من الملابس، أيمكن أن يكون حينذاك تمايز حضاري على الإطلاق؟

سيكون هناك تغاير كمي فحسب. . هذه الأمة تنتج حنطة وشعيراً أقل من تلك بنسبة خمس وثلاثين بالمئة. . وتلك الدولة تقذف إلى الأسواق بمنسوجات تفوق الدولة المجاورة بنسبة خمسين بالمئة. . وهذا الشعب يبني في السنة الواحدة عشرين مجمعاً سكنيّاً بينما لا ينجز جاره أكثر من ثمانية مجمعات!!

ليس ثمة تغاير أصيل في شخصية الحضارة. . في لونها وطعمها ورائحتها، وماذا تكون قيمة التاريخ البشري لو افتقد هذا التمايز الحضاري الأصيل؟

إن الذي ميّز الشرق عن الغرب،والهند عن الصين. . وعالم الإسلام عن عالم أمريكة وأوروبة، ليس مقدار ما تبنيه أو تنجزه أو تنسجه. . ولكن كيف تحب كل أمة من هذه الأمم. . كيف تصلي وتصوم وتعبد الله. . كيف تكتب أشعارها وقصائدها وفلسفاتها، وكيف تفكر في المصير. .

إن الاهتمامات الكبيرة هي تلك التي تتجاوز شدّ الأرض وضروراتها، على قوة هذا الشدّ وثقل هذه الضرورات وأهميتها القصوى. . تتجاوز إلى

الآفاق الرحبة، الممتدة.. التي جاءت الأديان على وجه الخصوص لكي تقود بني آدم إليها بعد أن تحرّرهم من شدّ الضرورات، وتضع عنهم إصرهم والأغلال..

ودون هذه الحرية التي يعطينا إيّاها الدين.. لن نفعل بأكثر مما تفعله دودة القز وهي تنسج الحرير.. ومجتمعات النمل وهي تخزّن الغلال لأيام الشتاء، وممالك النحل وهي تبني خلاياها وفق هندسة معمارية غاية في الإتقان..




مَنْ يضمَن؟

كثيرون هم أولئك المفكرون الوضعيون، أصحاب النظريات والمذاهب والفلسفات، من تصوروا أن ما ذهبوا إليه، وأعلنوه هو الحق المطلق، وأن ما وراءه الباطل..

وكثيرة هي السلطات الغاشمة التي أرادت تبريراً مذهبياً لوجودها وتجبُّرها، فسعت إلى اعتناق هذه النظرية أو تلك الفلسفة، وأعلنت أنها الحق الوحيد، وأن ما دونه الباطل..

ومن خلال هذه الممارسة المحزنة، القاسية برز إلى الوجود خط طويل من الآلهة.. وسفكت أنهار من الدماء.. واغتيلت مساحات واسعة من الحريات..

ماذا لو تواضع هؤلاء الوضعيون، قليلاً، فأعلنوا عن اختبارية مذاهبهم وأنها قد تتضمن الخطأ والصواب، والحق والباطل، وأنه قد يأتي يوم تزيحها فيه عن الطريق نظرية جديدة أكثر منطقية وإقناعاً؟!

لم يحدث إلّا في القليل النادر أن تواضع هؤلاء.. إن العلماء الحقيقيين أبناء المختبر والتجريب يتواضعون.. لكن هؤلاء الوضّاعين، المشرعين للناس من دون الله.. لم يتواضعوا يوماً.. وكانوا يظنون دائماً، أو يدفعون عبّادهم لأن يظنوا، بأن ما قالوه هو الحقيقة النهائية..

إن ثمة دوافع سايكولوجية مركوزة في جبلّة بني آدم، تدفع نماذج من هؤلاء الباحثين إلى مواقع الادعاء الباطل، التي تقربهم من الآلهة..

إن هذه المواقع تمنحهم حجماً أكبر بكثير من حجمهم الحقيقي.. كانوا

يحلمون به.. وتعطيهم هيمنة على الآراء والعقول تشبع في أنفسهم حاجة عميقة، وتمكنهم من الديمومة والبقاء، أو هكذا يتوهمون، في وجدان الأجيال، فتهبهم صفة الخلود التي يتحرقون شوقاً إليها.. هذا فضلاً عن إحاطتهم بالاعتقاد القائل بأنهم أصحاب العلم الحقيقي وأن ما يقولونه هو الصواب المطلق..

من يضمن عدم تألّه الوضعيين في الأرض؟! لا أحد. . أبداً. .

وهكذا تبرز الأديان. . في جانب ما من جوانب دورها الكبير في العالم. . لكي توقف هذه اللعبة الخطيرة، وتصدّ الآلهة الزائفة عن المضي إلى أهدافها واستعباد الناس لها من دون الله. .

إنها مظلة الحرية الواقية.. والسلاح المشرع بوجه الذين يحاولون اغتيالها لصالح حفنة من الوضّاعين، الدجالين، المتألّهين، بنظمهم ومذاهبهم وتشريعاتهم.. في الأرض.. ونفهم كيف يكون الدين تحريراً حقيقيّاً للإنسان.. ونفهم كيف يكون هو التحرير الأوحد.. فما من مذهب بشري، مهما أوتي من تنزه عن الطغيان، والاستعباد، بقادر على تجاوز مأساة التألّه الزائفة..

هذا. . وندرك الأبعاد الحقيقية لذلك الشعار الكبير الذي رفعه المسلمون بوجه الطاغوت الأرضي، وهم يجاهدون في الأرض لإسقاط هذا الطاغوت، وتغيير العالم لصالح الإنسان. . (الله ابتعثنا لكي نخرج ـ من يشاء ـ من عباده من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام). .

ندرك أبعاده الحقيقية الشاملة بمجرد أن نستحضر، في أذهاننا، عبادة العباد المحزنة لصف الطاغوت الطويل من الوضّاعين والمتمذهبين والمشرعين!!



بالتخطيط..
لا بانتظار المفاجآت

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[1].

وهكذا فإنه ما من شيء في بنيان الكون، وتركيب العالم والحياة.. يخضع للصدفة.. من أصغر شيء فيه يغور في الطوايا التي لا تراها العيون: نيوترونات وبروتونات وإلكترونات وجينات وكروموزومات.. وحتى السدم والنجوم والمجموعات الشمسية الهائلة والمجرات المنتشرة عبر مساحات لا يحيط بها خيال إنسان..

كل شيء.. يجد نفسه مضبوطاً ضمن إرادة الله، وعلمه، وتخطيطه للخلق والصيرورة والمصير..

إنها رياضيات الإبداع الإلٰهي التي تحكم سنن الكون والحياة، فلا تندّ ولا تطغى.. ومن خلال هذه الحقيقة الكبيرة.. المعجزة.. يريد القرآن الكريم أن يعلمنا شيئاً آخر: ألّا نتحرك في تجربتنا البشرية عبر العالم فوضى وعلى غير هدى.. ألّا نخطو خطوة واحدة تبني احتمالات نجاحها أو فشلها على الصدفة.. أن نتجاوز هذا الموقف السلبي إلى الإيجاب الذي يليق بحجم الإنسان وكرامة الإنسان كخليفة في الأرض..

---

(١) سورة القمر، آية: ٤٩.

التخطيط.. ذلك هو ما يتطلبه منّا الموقف.. التخطيط الذي هو نقيض الارتجال، والفوضى، والتخبط، وانتظار احتمالات الصدفة، وعطف الحظوظ وتكشف المفاجآت..

بهذا المعنى.. لا حظوظ ولا مفاجآت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[١].. وليس وراء هذه المعادلة.. الواضحة.. البينة.. من معذر..

وعندما دهش المسلمون لهزيمتهم في معركة أحد أجابهم القرآن الكريم بالصراحة نفسها: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾[٢]..

لم يلتزموا الخطط المدروسة، المبرمجة، التي رسمها لهم الرسول ﷺ فهُزموا..

إن دقة البناء الكوني وحبكة الحياة المعجزة، وتنظيم السموات والأرض، تعلِّم المسلم دائماً، وهو صنع الله الذي أتقن كل شيء، أن عليه إذا ما أراد إبداع حياة طيبة سعيدة جديرة بأن تحيا.. أن يلتزم التخطيط ويتجاوز الفوضى والارتجال..

إن هذا المعنى الكبير يكمن وراء انتصارات الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين رضوان الله عليهم، واختزالهم المدهش لحيثيات الزمن والمكان.. وضرورات التاريخ.. وهم بصدد تحقيق متطلبات خلافتهم في الأرض.. ووراء تلك المعطيات الحضارية الباهرة، التي انحنى لها الباحثون في الشرق والغرب.. وأنه ـ كذلك ـ وراء نهوض المسلمين في أعقاب كل كبوة أو هزيمة لحقت بهم على مدار التاريخ.. ولن ينهضوا من

---

(١) سورة النساء، آية: ١٢٣.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦٥.

كبوتهم المعاصرة إلا باعتماد المبدأ نفسه.. المبدأ المستمد من جوهر الإيمان بالله.. الخالق.. المدبر..

وليس ما يقال، وراء هذه الحقيقة، من أن الدين يعلِّم الإنسان الاتكال على الصدف وانتظار المفاجآت.. بذي بال..

وهو أتفه من أن تدور حوله المناقشات..




اقتلوني واقتلوا مالكاً معي

إن الدعوة إلى وحدة الإنسانية، وإلى القاعدة الواحدة التي تنبثق عنها الأديان كافة، إنما هي سلاح ذو حدين.. يعتمدها الإسلام ـ إيجاباً ـ لتأكيد وحدة الاديان، ومصدرها الواحد، ووظيفتها المشتركة، وهدفها الواحد، ووحدة صيرورتها التاريخية..

ويعتمدها هدّامو الاسلام، كالباطنية في الماضي، والماسونية وغيرها من الحركات ذات الطابع الإنساني المخادع في الحاضر، (ويجب أن نلاحظ التشابه بينها جميعاً في أكثر من جانب على مستوى الأساليب والمضامين والأهداف).. يعتمدونها لتدمير الحدود المتميزة بين الأديان، وبخاصة الإسلام، لإضعاف تأثيرها بالتالي بعد أن تفقد خصائصها المتميزة، وملامحها المستقلة، وشخصيتها المتفردة.. وتذوب..

والذين يسهمون في تأكيد هذا الجانب (الهدّام)، أحد اثنين: إما ماكر خبيث يعرف مسبقاً النتائج الخطيرة التي تتمخض عن دعوة كهذه تقوم على ما يشبه قاعدة الأواني المستطرقة، حيث تنحدر فيها المستويات العليا صوب الدنيا، فتستوي جميعاً.. ولن يكون هذا إلّا على حساب الأديان والمذاهب الأكثر تفوقاً.. والإسلام يقف في قمة هذه الأديان.. ومن ثم فستكون التضحية فادحة تستحق أن تبذل من أجلها جهود وترسم برامج وتتخذ خطوات..

وإما ساذج غافل، يستهويه أن ينتمي بدينه وعقيدته إلى هذه الواجهة الإنسانية المفتوحة، التي تحتوي أبناء جميع الأديان، وتضعهم في صف واحد بمواجهة صف المادية والتحلل والإلحاد.. سيما وأننا في عصر نحن في أمس الحاجة فيه إلى أن توحد طاقات العالم الإيمانية في معسكر واحد، قبل أن يكتسحه معسكر المادية والإلحاد!!

ولكن هؤلاء السذّج الغافلون لا يدرون أن انتصاراً حقيقيّاً لن يأتي بدون تأصيل الذات العقائدية، وتعميق ملامحها المستقلة، وتعزيز شخصيتها، وحمايتها من التفكك والذوبان..

والعقائد كالحضارات.. ما لم تكن متميزة، أصيلة، تحمل خصوصيتها، فلن يكون لها تأثير فعّال في مجرى التبادل الحضاري العام.. ومن ثم فإن الانتماء إلى دعوة كهذه سيجعلنا نخسر مرتين: نخسر عقيدتنا، ونفقد احتمالات انتصارنا على الخصوم.. وهي خسارة مؤلمة حقّاً لأننا ـ بذلك ـ كمن يختار أن ينفي نفسه من العالم، أو ينزع عن وجهه ملامح وجهه.. فيغدو بلا وجه!!

وثمة آخرون من المهزومين نفسياً لا يقدرون على ذكر شيء من قيم الإسلام ومعطياته إلا وجدوا أنفسهم مسوقين لذكر شيء عن قيم المسيحية ومعطياتها خوفاً من أن يتهموا بالتمذهب.. أو الانغلاق الديني.. أو إلى آخره من هذه الاتهامات التي يعتمدها معسكر الخصم سلاحاً معنوياً لتدمير ثقتنا بعقيدتنا وأنفسنا.. أكثر من ذلك.. إنهم يبدؤون بالمسيحية ثم يعطفون على الإسلام، ويذكرون ـ وهم المسلمون!! ـ السيد المسيح بالتبجيل الكامل، ثم يعرجون على محمد ﷺ بشيء من التبجيل..

وتبجيل الأنبياء جميعاً (أخلاقية) علَّمنا إياها القرآن.. لكنها عندما تأخذ سياقاً كهذا فإنها تغدو هزيمة ونكوصاً!!

ولمن يريد أن يطلع على شواهد لهذا (النكوص) أن يلقي نظرة على تراثنا الأدبي المعاصر.. فهنالك سيلتقي بالكثير من العبارات والمصطلحات والأعراف المسيحية: من تكريس.. وتعميد.. وصلب.. وخطيئة.. وتخليص.. واعتراف.. إلى آخره.. تصدر عن أدباء مكتوب على دفاتر نفوسهم أنهم مسلمون.. ومقابل هذا لا نجد ثمة ما يوحي بانتمائهم ـ ولو شكلياً ـ للإسلام.. إن هزيمتهم التي صنعوها بأنفسهم، والتي لا مبرر لها على الإطلاق، تجعلهم ينسلخون، بوعي وبدون وعي، من كل ما من شأنه أن يذكر بالإسلام!!

وربما قلل هؤلاء من انهزاميتهم لو أدركوا ما يفعله الطرف الآخر.. إنه لا يتعاطف ـ بالمقابل ـ مع الإسلام، ولو على نطاق الشكليات والمجاملات.. وتبادل المحبة بالمحبة والود بالود..

بل على العكس يزداد هذا الطرف تشبثاً بمواقفه واستعلاءً بها، واعتزازاً بمعطياتها.. وهو يرى هؤلاء المنهزمين يتمسحون بقيمه وطقوسه وأعرافه، ومصطلحاته..

والحق معهم.. فإن من لا يحترم نفسه لا يحترمه الآخرون..

وثمة من يبلغ به الحقد على الإسلام والكيد له أن يكون على استعداد لنقد الموقف الديني كله والتشكيك بجدارته في عالمنا المعاصر.. إذا كان في نقده وتشكيكه ما ينسحب على الإسلام فيضعف موقفه..

كنت في محاضرة يوماً لأحد أساتذة التاريخ المحسوبين على خطّ المادية.. وكان موضوعها يدور حول: (حي بن يقظان)، لابن طفيل ونظرية المعرفة.. وقد كانت المحاضرة على درجة كبيرة من التهافت، والسطحية، والتناقض.. وراح المحاضر ـ بطريقة تتسم بالسذاجة والفجاجة ـ يسعى إلى جعل ابن طفيل من الماديين الديالكتيكيين.. كانت المحاضرة على درجة من

الضعف جعلها تتعرض لنقدات عنيفة من قبل عدد من الحضور.. وإذ بدا تفوق الموقف الإسلامي عبر ساعات النقاش.. أعلن أحد أساتذة اللاهوت عن عدم ارتياحه ثم طلب الكلام.. وكان من المفروض أن يدافع ـ هو الآخر ـ عن الموقف الديني بمواجهة مناهج التبذل والتزييف المادية.. لكنه على العكس تماماً، هاجم الموقف الديني، وأكد على أن العصر الحاضر.. عصر العلم والتجريب.. والأرض.. لم يعد بحاجة إلى نظريات للمعرفة تأتي من فوق.. أو تتنزل من السماء!!

ألم أقل لكم؟! إنه من أجل أن يقتلوا الإسلام.. هذا الدين القيم.. المتفرد.. مستعدين لأن يتنازلوا عن قناعاتهم الدينية أيضاً، وفق المثل القائل: (اقتلوني واقتلوا مالكاً معي)..

ولكن (مالكاً).. هذا العملاق ذا الأربعة عشر قرناً من العمر تزداد قامته ارتفاعاً يوماً بعد يوم.. ولن تستطيع قوة في الأرض.. دينية أم مادية، أن تنال منه.. أو تبلغ كعبه!!

استراتيجية
الموقف الوسطي

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[(١)]. .

ذلك هو الموقف الوسطي المتميز الذي يتناول القضية من جانبيها، كما يعلمنا كتاب الله دائماً. . إنه لا يجمد على الطرف الواحد، ولا يتأرجح دوماً بين اليمين والشمال. . ولكنه ينظر إلى كافة الأطراف. . إلى مختلف الزوايا والأوضاع. . ثم يتخذ موقفه. .

إن مأساة الفكر الوضعي تكمن دوماً في إحدى اثنتين: التجمد على الطرف أو الوضع الواحد. . والتأرجح الذي لا يستقر على طرف أو وضع. .

وفي كل مسألة من المسائل الخطيرة في حياة الجماعات البشرية يقف الإسلام وقفته الوسطية، التي تجمع في اللحظة الواحدة بين المرونة والصرامة. . بين الانفتاح والتحدّد. . بين شمولية الرؤية وواقعية القرار!!

إن القرآن الكريم يطلب من الرسول ﷺ ـ ها هنا ـ أن ينفتح بالمشاورة على كافة الاتجاهات والآراء، ولكنه يطلب منه في الوقت نفسه ألّا يطيل التأرجح بين الآراء، ويستمر ـ باسم الانفتاح واختبار وجهات النظر المختلفة ـ على التداول والتشاور. . والمسألة مسألة استراتيجية حرب. .

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

والزمن محسوب فيها بحساب.. فعليه إذاً أن يستكمل أطراف المعادلة، أن يعزم ويتوكل على الله..

المشاورة.. والعزم.. ذلكما هما طرفا المعادلة، وسرّ الانتصارات الكبيرة التي حققتها مسيرة الإسلام الأولى في عصر الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين.. المشاورة.. والعزم.. ولا يقف الأمر عند حدود اتخاذ القرارات العسكرية أو السياسية.. ولكنها استراتيجية حياة شاملة تنبثق عن قاعدة الإسلام الكبرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1]..

إن إحدى جوانب مأساة أنظمة الحياة الوضعية في كل زمان ومكان، إنها أحادية الموقف.. فها نحن في العصر الحديث نلتقي بنمطين رئيسين للحياة: نمط الديمقراطيات الغربية، ونمط الديكتاتوريات الشرقية أو الغربية!!

في التجربة الأولى يتجاوز التشاور والانفتاح، وتبادل الرأي حدوده الطبيعية.. وحتى المبادئ الأساسية والاستراتيجيات الكبرى تغدو لعبة بأيدي الأحزاب تتداول فيها الآراء، ويستمر الشد والجذب، وتطرح وجهات النظر المتضادة.. وتتحول القضايا الخطيرة في حياة الأمة إلى مسألة تجريبية أو اختبارية قد لا يسمح الموقف بها.. فتكون العاقبة الوخيمة..

وفي التجربة الثانية يتجاوز العزم، ومركزية الرأي، وصرامة اتخاذ القرار، حدوده الطبيعية، ويتحوّل إلى تسلط ديكتاتوري أناني قهري، على رقاب الناس ومقدّراتهم، يسلب أمنهم وحريتهم.. وقد يكون مخطئاً، وما أكثر ما يكون، بسبب من انغلاقه على وجهات النظر المختلفة والآراء المتباينة، فتكون العاقبة الوخيمة..

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٤٣.

وها نحن قد رأينا على مدى نصف قرن من الزمن ما حلّ ويحلّ بهذين النمطين من الحياة، من هدرٍ للطاقات، وتضييع للوقت، واستهانة بإنسانية الإنسان.. رأيناه في تجارب الديموقراطيات الاستعمارية الغربية، والدكتاتوريات الستالينية، والنازية والفاشية.. وغيرها..

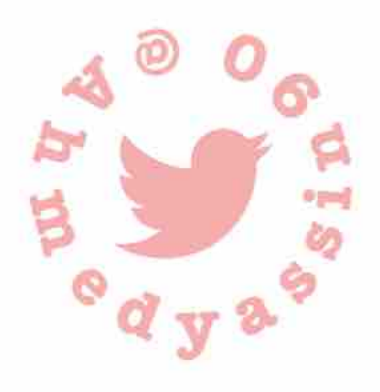
ويبقى الموقف الوسطي الذي لا يتشنج على الصيغة الواحدة والذي يحتوي (الوضع) من كافة أطرافه.. هو الموقف المنطقي العادل..

وتبقى استراتيجية الإسلام هي الاستراتيجية التي يمكن لها دوماً أن تقود البشرية إلى برّ الحق والعدل.. والسلام..




فهرس الموضوعات


تم بحمد الله
@Ahmedyassin90


@Ahmedyassin90



تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90